لهما أف ولا تنهرهما ﴾ • والنهر هو الزجر ورفع صوت غير الرضى فى الحديث أو الرد • وكأن القرآن الكريم بهذا التدرج فى النهى من الأبسط المنهى عنه بشدة الى البسيط المنهى عنه بشدة أكبر يدعو كل ابن الى أن يصبر على كل ما يصدر عن والديه من قول وفعل فى حقه لا يستحسن ، سواء أكان القول والفعل بسيطين أم جليلين • على الابن فى كل الأحوال أن يقول لوالديه قولا كريما هينا لطيفا • حشوه دفء الحنان وفيضه المحبة والبشاشة والحبور • عن التضجر والنهر نهانا رب العزة ، وبالقول الكريم لوالدينا أمرنا أرحم الراحمين • قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا • اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾ •

واذا كنا تبينا تقديما للوالدين فى الذكر دليلا على الأهتمام بهما • فهذا التقديم خير مهيىء للتقديم ذاته الذى يطبع صدر الجزئية التالية بطابعه • قال تعالى : ﴿ اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾ •

معروف أن الفاعل من الوجهة النحوية يتقدم المفعول • ولابد للظرف والجار والمجرور من متعلق كى يكمل به المعنى • ويجوز أن يكون هذا المتعلق متقدما أو متأخرا • هذا ما يقوله النحاة • وجاء العالم النحوى البلاغى العظيم ، عبد القاهر الجرجانى ، كى يستخلص من النحو نظريته البلاغية الخالدة فى الإعجاز القرآنى المعتمدة على النحو أساسا ، والتى كشف عن طريقها السر فى إعجاز القرآن الكريم ألا وهى نظرية النظم • فالبلاغة عنده أو الإعجاز القرآنى عنده فى النظم ، أو توخى معانى النحو •• ومعنى توخى معانى النحو أن تنقل المعانى الى الآخرين بواسطة الألفاظ ، مرتبة فى النظام الذى ترتضيه نفس المتكلم كى يحدث فى السامع ذات التأثير •

بما سبق يتضح أن اللفظة بعد أن تسلم فى ذاتها من كل العيوب الصوتية ، إنما ينظر اليها من الوجهة البلاغية منتظمة أو مركبة مع غيرها وليست مفردة ، وأن هذا التركيب يكون فصيحا حينما يطبق القواعد النحوية ، ولكنه لا يكون بليغا الا حينما يتوخى معانىَ النحو من تقديم وتأخير وحذف وذكر ، الى غير ذلك •

ونود بشأن صدر الجزئية الثانية من الآية الكريمة أن نتبين الفرق بين توخى معانى النحو كما ذهب الى ذلك الامام عبد القاهر الجرجانى ، والذى تحقق فى الآية الكريمة ، وبين تطبيق القواعد النحوية تطبيقا قاعديا والذى سنرتب بموجبه ألفاظ صدر الآية ، كى يتبين الفرق بين الطريقتين فى التعبير وكى يثبت مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى .

لا يخفى أن ترتيب الكلام نحويا فى صدر الجزئية الثانية من الآية الكريمة ، على النحو التالى : اما يبلغن أحدهما أو كلاهما الكبر عندك . إذ قدمنا الفاعل فى موضعه وأخرنا المفعول فى موضعه ، وجعلنا الظرف فى مكانه . ألست معى بأن ترتيبنا للالفاظ ترتيبا قاعديا جعل المعنى تقريريا صرفا . هذا بالاضافة الى أننا وأدنا التلاؤم الصوتى وحُسْنَ الجرس وجمال الأثر فى النفس والعقل معا ؟ يتضح كل ذلك من تلاوتنا للجزئية كما جاءت فى الذكر الحكيم : ﴿ اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ . لقد تقدم الظرف : « عندك » إشعارا للمخاطب بأن الحديث سيتجه الى الذى سيكون عنده بالذات وليس عند غيره ، ومعنى هذا أنه يرتبط بهذه العندية حقوق وواجبات ، فينبغى أن يكون الكلام هنا عن الوالدين ، فبهذا أوحت الجزئية الأولى الموطئة فى الآية ، قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ﴾ .

إن المعانىَ فى صدر الجزئية الثانية تأخذ فى الظهور وكأنها الشمس المختفية وراء غلائل السحب. ذر قرن من المعنى بمجىء الظرف : « عندك » وبدأ الحاجب الأول لشمس المعنى بتقديم المفعول : « الكبر » ثم بدا الحاجب الثانى الذى ضُنَّ به ، حينما جاء الفاعل متأخرا . وإذا بوجه المعنى الجميل يبدو كالقمر ليلة البدر الصافية أو الشمس التى خرجت لتوها من وراء ستائر السحب . ووقتها تتطامن النفس المتشوقة المتطلعة رضا وسعادة ويقر قرارها بشرا وحبورا بتلك المنزلة العالية الرفيعة للوالدين فى الإسلام .

ومع ذلك فان النفس تظل متعطشة للنصائح الربانية المتعلقة بالوالدين ، فإن جواب الشرط توجد رائحته ويتسمع وقع خطاه . ويكون الجواب متعلقا بالطريقة اللطيفة التى ينبغى للابن أن يخاطب بها والديه . ويردف القول اللطيف بالفعل اللطيف . أما القول فقد جاء بشأنه قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾ . وهذا

القسم من الآية التالية : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ . وأما الفعل فقد جاء بشأنه صدر الآية التالية : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ .

وبما أن الدعاء بالرحمة لهما تبعٌ للتصرف الرحيم معهما ومكمل له لذا ينبغى أن يكون تأملنا للجزئيات وفق ترتيبها .

وفى سبيل تبين معنى هذه الجزئية الكريمة : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ نودّ أول الأمر أن نتأمل كلا من لفظة الجناح والذل ، وعلينا أن نبدأ بلفظة الجناح المتقدّمة فى الذكر .

الأساس فى الجناح ما يُطير به الطائر . وهذه الحقيقة قادرة على نقلنا حالا الى لفظة الطائر التى استعملتها الآية الكريمة فى هذه السورة استعمالا جديدا . قال تعالى : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ . فهل استعملت لفظة الجناح فى الآية الكريمة استعمالا جديدا على غرار استعمال لفظة الطائر كما مرّ بنا من قبل ؟ وما هذا المعنى ؟

بما أن الخطاب موجه فى الآية الكريمة الى الأبناء من البشر . فهذا يعنى أن لفظة جناح تستعمل استعمالا جديدا . فاذا كانت اللفظة تطلق أساسا على ما يطير به الطائر ، فانها تطلق من الإنسان على يده وجانبه وعضده وابطه[1] واذا كانت اللفظة قد استعملت فى القرآن الكريم دليلا على ما يطير به الطائر فى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون ﴾ فقد استعملت اللفظة ذاتها فى القرآن الكريم دليلا على يد الإنسان وعضده . قال تعالى فى سورة القصص[3] خطابا لموسى عليه السلام : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين ﴾ . فالمطلوب من موسى عليه السلام أن يدخل يده اليمنى من خلال فتحة الثوب أو الجبة التى يدخل منها رأسه ــ فهذا هو معنى الجيب فى اللغة أصلا ــ حتى تصل الى جناحه

---

(١) انظر القاموس جنح .
(٢) الانعام ، ٣٨ .
(٣) آية ، ٣٢ .

أى إبطه فتخرج بيضاء من غير سوء آية من الله تعالى على صدق موسى عليه السلام • وقد بين هذه المرحلة من العملية قوله تعالى فى سورة طه[1] : ﴿ واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ • أما القول فى الآية الكريمة : ﴿ واضمم اليك جناحك ﴾ فانه يشير الى المرحلة الثانية من العملية ، حينما يريد موسى عليه السلام ليده التى أصبحت بيضاء من غير سوء للنور الذى شع منها بارادته عز وجل أن تعود أدماء كما كانت من قبل ، فليس عليه الا أن يدخل يده مرة أخرى الى المكان السابق ذاته • جاء فى البحر المحيط[2] : « ومعنى : واضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك فى جيبك واحد ، ولكن خولف بين العبارتين • وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى اخفاء الرهب » •

مما سبق يتضح أن لفظة الجناح فى سورة طه بمعنى الإبط والعضد أو ما فى معناهما • وأنها فى سورة القصص بمعنى اليد ذاتها • فاذا أضفنا الى ذلك أنها تستعمل بمعنى الجانب وما الى ذلك تبين أنها بصفة عامة تطلق على اليد وما جاورها •

وانا لنتساءل : كيف تم انتقال لفظة الجناح دليلا على ما يطير به الطائر الى يد الانسان وما جاورها ؟ الحقيقة أنه يحضرنا سببان لذلك •

السبب الأول : هو أننا لو نظرنا الى المعنى الأصلى الذى اشتق منه لفظة الجناح لتبين أنه يتعلق بالجنوح أى الميل • وصفة الميل هذه رئيسية فى كل مشتقات هذه المادة • فبسبب لين الجناح وطواعيته للميل والانحناء والحركة • أطلق عليه هذا الاسم • وانتقلت اللفظة بعد ذلك الى اليد ، لمشاركتها الجناح فى هذه الصفات •

والسبب الثانى : هو أن ثمة صفة أخرى مشتركة بين الجناح واليد تقوى الأواصر بينهما وهى أنه اذا كان الجناح من الطائر هو الموجه له يمنة ويسرة ، ارتفاعا وانخفاضا ، والمحافظ على اتزانه والضابط له فى طيرانه ، فان لليد من الإنسان دورا شبيها لدور الجناح من الطائر •

---

(١) آية ، ٢٢ .
(٢) ١١٧/٧ .

فالمتأمل لشخص ماش يروعه تلك الحركة المنتظمة لحركة يديه ، تلك الحركة التى يضبط سرعتها وارتفاع مستواها سرعة الماشى أو بطؤه أو تثاقله . فاذا جرى الإنسان تحركت يداه فى سرعة وارتفع مستواهما ارتفاعا ملحوظا . يحدث كل ذلك بالضبط وفق سرعة الخطوات وتلاحقها ، لا ليس ذلك فحسب ، بل إن الذى يروع حقا ، مما هو دليل كبير على أن اليد ميزان لحركة الإنسان ، تماما كما كان الجناح ميزانا للطائر ، هو أنه عز وجل ، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، شاءت إرادته لكل انسان خلق ، حينما يمشى أو يجرى ، أن تتقدم مع الرجل اليمنى مثلا اليد اليسرى ، وفى هذه الحال تكون الرجل اليسرى متأخرة مع اليد اليمنى وأن تتقدم مع الرجل اليسرى اليد اليمنى ، وفى هذه الحال، تكون الرجل اليمنى متأخرة مع اليد اليسرى ، وهكذا . فأذا اندفع الإنسان إلى الأمام برجله اليمنى كانت الحاجة ماسة لحفظ توازنه ، وهنا تتقدم فى المقابل فى ذات الوقت وبقوة موازية اليد اليسرى . وتحدث باستمرار هذه العملية فى انتظام رائع وبديع عند كل إنسان وبلا استثناء ، فسبحان الفعال لما يريد ، القادر على كل شىء ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وبقصد الحصول على دليل آخر على هذا التوازن الحكيم وقيمته العظيمة يستطيع الواحد منا أن يتعمد فى مشيه إيقاف حركة يديه وسيتبين أنه اختل اتزانه وأنه كالمقيد اليدين .

ومن أهم الحالات التى يظهر فيها الاعتماد على اليدين لحفظ الاتزان حينما يختل توازن الإنسان لسبب من الأسباب ولا يجد حيث يميل جسمه مستندا يعتمد عليه ، وبالتالى فانه يحاول جاهدا حفظ اتزانه محركا يديه فى الهواء وجانبيه .

وما المراد بخفض الجناح من الإنسان فى هذه الجزئية من الآية الكريمة : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ ؟ .

فى سبيل الإجابة على هذا السؤال ، نحن بحاجة الى أن نعلم أن الجناح فى الآية الكريمة يراد به جانب الانسان للجوار بينه وبين اليد . وبهذا المعنى جاء فى قوله تعالى فى سورة الحجر[1] خطابا للمصطفى

---

(١) آية ، ٨٨ .

صلى الله عليه وسلم : ﴿ واخفض جناحك للؤمنين ﴾ وقوله تعالى فى سورة الشعراء[1] : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . كما أننا بحاجة لأن نقف عند جملة : « واخفض » فى كل من المناسبات الثلاث . فبما أنه تمت استعارة لفظة الجناح لليد ، وبما أن هذه اللفظة ترتبط أساسا بالطائر الذى من أهم ما يلاحظ عليه فى طيرانه انخفاضه وارتفاعه معتمدا فى ذلك على جناحه ، وبما أن الطائر يبسط جناحه فى ارتفاعه ويقبضه فى انخفاضه ، وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن ، انه بكل شىء بصير ﴾ لذلك حسن ، بعد استعارة الجناح ، استعارة الصفة الملازمة للجناح المناسبة لمقتضى الحال ، ألا وهى انخفاض الجناح ، دليلا على انخفاض جانب الإنسان تواضعا ولين جانب ومحبة للمؤمنين . فالطائر حينما يهم بالنزول يقبض جناحه ويخفضه وتتم بناءً على ذلك عملية الانخفاض فالهبوط .

ومن سمات المؤمن التواضع للمؤمنين دليلا على حبه لهم وتفانيه فى مصالحهم . وأنت اذا أنعمت النظر فى هيئة هؤلاء قياما أو قعودا ، تتبين بعينيك انخفاض جانب هؤلاء لينا وتواضعا وحنانا . تنفيذا لأوامر الله تعالى واجتنابا لنواهيه .

بقى علينا أن نعرف المراد بلفظة الذل فى الجزئية ، قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ .

النقطة المهمة التى نود أن ننبه عليها وهى أن لفظة الذل فى الآية الكريمة لم تأت مرسلة بل مقيدة ومبينة بهذه الزيادة : « من الرحمة » .

فما معنى لفظة الذل مجردة ؟ الحقيقة أن معنى هذه اللفظة مجردة معروف تماما ، لذا هى لم تأت بحق المؤمنين مجردة أبدا انما مقيدة ، إما بالرحمة ، كما فى الآية التى نحن بصددها ، وإما بالعزة ، من جهة المقابلة هذه المرة فى قوله تعالى من سورة المائدة[3] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه

---

(١) آية ، ٢١٥ .
(٢) الملك ، ١٩ .
(٣) آية ، ٥٤ .

اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾.

ولا تجيء لفظة الذل مجردة بمعنى الهوان والصغار الا بحق غير المؤمنين . أما بحق المؤمنين فهو ذل الرحمة للوالدين وذل المحبة وخفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين .

والمراد بالذل المقيد بالرحمة المبالغة فى خفض الجناح للوالدين من فرط الرحمة بهما والإشفاق عليهما . وما أكبرها من عزة لكل ابن ، يتجلى فرط محبته لوالديه ، وإشفاقه عليهما ، ورعايته خاطرهما فى صورة الكلام الذى يسيل رقة وعذوبة ، وفى المعاملة الكريمة لهما . ليست المبالغة فى ذلك بحق الوالدين هى الكرامة حق الكرامة . وبسبب هذه المبالغة حسن استعارة لفظة الذل — ولكنه المقيد بالرحمة — للشبه من حيث الشكل والمنظر الخارجى بين المبالغة فى كل ذلك وبين هيئة الذليل . ولكن شتان ما بين الموقفين فى اللب والجوهر، وما أبعد ذل الرحمة للوالدين عن ذل الهوان الذى يأثم المؤمن لو رضى به . وقد قال عز من قائل[1] ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾.

وإن ثمة نكتة بلاغية فى انتقاء الآية الكريمة للفظة الذل بالذات . ونمهد لها بالاشارة الى ما دار من حديث بين شخص حليم وآخر معجب بحلمه ، أراد أن يكون هو الآخر حليما ، وطلب من صاحبه أن يبين وجهة نظره فى رغبته . فما كان من الشخص الحليم الا أن قال لصاحبه ما معناه : إنه الذل يا أخى ، أفتصبر على الذل ؟

وانا لنتساءل : وهل كان الحلم يوما من الأيام ذلا ؟ لا بطبيعة الحال . ولكن الحليم يريد بهذا القول بما أن السائل لا يصبر على الذل لصعوبته ومرارته ، فكذلك الحلم ، بسبب صعوبته ومرارته هو لايستطيع أن يصبر عليه . فليس المراد أن الحلم ذل ، إنما المراد أنه صعب ومر لا يطيق احتماله الا الأفراد المعدودون ، ومن الجائز أن يكون السائل ليس واحدا منهم .

فاستعمال الآية الكريمة للفظة الذل يوحى بأن ما يطلب من كل ابن

---

(١) المنافقون ، ٨ .

أن يقوم به دائما وأبدا فى حقّ والديه من منطق عذب ومعاملة كريمة ، مهما كانت لهجتهما معه ، ومعاملتهما له ، يحتاج إلى شىء غير قليل من الصبر والجد والاجتهاد • ولكل مجتهد نصيب •

واللطيف فى الأمر ، مما هو دليل كبير على منزلة الوالدين فى الإسلام وأن التواضع الذى هو من نصيبهما ينبغى أن يكون أكبر بكثير وكثير مما هو نصيب للمؤمن من أخيه المؤمن ، هو أن الجمع بين الذل والرحمة فى آية واحدة من نصيب الوالدين فقط • أما بشأن المؤمن للمؤمن فإنّ لفظة الرحمة تجىء مفردة ولفظة الذل تجىء مفردة • ومع أننا نفهم دائما أن ذل المؤمن للمؤمن هو ذل الرحمة والعزة والكرامة • الا أنّ فى عدم الجمع بين اللفظتين بشأن المؤمنين ، دليلا على أن التواضع للوالدين ينبغى أن يكون فريدا فى بابه •

ويدخل فى هذا أن الخطاب فى القرآن الكريم للمصطفى صلى الله عليه وسلم بأن يلين جانبه للمؤمنين اكتفى بخفض الجناح فقط • قال تعالى[1] : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ •

واللطيف فى الأمر أيضا هو أن الجمع فى آية واحـدة بين الجناح والذل معا ، إنما كان فى هذه الآية فقط ، المتعلقة بالوالدين • بينما جاء بشأن تواضع المؤمن للمؤمن كل من اللفظتين منفردة كما تبيّن بشأن كل من آية المـائدة والحجر والشعراء •

واذا كنا تبينا أن التقديم البلاغى ، من أهم سمات الآية السابقة ، ففى هذه الآية التى نحن بصددها تقديم أيضا ، ويعتبر فى حقيقته امتدادا للتقديم فى الآية السابقة • وهو هنا تقديم للجار والمجرور العائدين على الوالدين • قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ •

وحيث إنّ ظاهرة الرحمة هى المحور الذى تدور حوله الدعوة الى بر الوالدين ، تلك الدعوة المقرونة فى آيات الحكمة هذه برأس الحكمة ،

---

(١) الحجر : ٨٨ .
(٢) الشعراء : ٢١٥ .

عبادة الله تعالى وحده البر الرحيم ، لذا حسن الانتقال من الرحمة المحدودة للأبناء ، الى الرحمة الكاملة للبر الرحيم • من الرحمة المؤقتة الى الرحمة الأبدية • من الرحمة التى يجوز أن تكون مغلوبة مقهورة سلبية ، الى الرحمة الغالبة دائما ، القاهرة الإيجابية أبدا • قال تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ •

اننا فى حقيقة الأمر بصدد درس بليغ يلقيه علينا القرآن الكريم • فعلى كل إنسان أن يعلم جيدا حقيقة قدره ، وأن يسعى جاهدا كى تكون صلته ببارئه دائما قوية • يستمد منه العون والتوفيق فى كل أموره • وعليه أن يعلم بأن توفيق الله تعالى له بأن يكون رحيما بوالديه ليس الا مظهرا لرحمته عز وجل الذى شاء ذلك ، وأن رحمته بوالديه ، التى لا يمكن أن يزاحمها فى الإخلاص من أجلها أى شأن آخر ، ليست على الإطلاق شيئا بالقياس إلى رحمة الله تعالى البر الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء • فعلى كل ابن أن يدعو ربه مخلصا بأن يتغمد والديه بالرحمة ، فى حياتهما وبعد مماتهما ، لأنها كل شىء بالنسبة لهما •

ويلاحظ بشأن هذا القول الأخير : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ أن لفظة الرب هى التى تستعمل هنا • والمعروف أن هذه اللفظة إنما تستعمل فى القرآن الكريم ، حينما يكون الموقف قريبا للخصوص ، أما فى العموم فتستعمل لفظة الجلالة « الله » وحينما يكون الجو العام مشبعا بشذا الرضى وعطر الامتنان • وإن الأمر لكذلك بشأن هذا القول • فالجو العام مشحون بالرضى والسعادة وبشكر الله تعالى وشكر الوالدين اللذين وفقهما الله تعالى ومن عليهما بآلائه التى لا تحصى فأحسنا تربية هذا الابن ونشأه النشأة الطيبة الصالحة •

ومن اللطيف دليلا على ما نقول أن ننبه الى الجناس اللطيف بين لفظة الرب والقول « ربيانى » وان حقيقة التربية هذه المشدودة إلى لفظة الرب صوتيا ومعنويا معمقة للشعور بالرضى والامتنان فى حقه عز وجل مربى العباد بنعمه ، وفى حق الوالدين المنفذين بإرادته عز وجل تربية الأبناء والحرص على مصلحتهم •

وإذا كنا تبينا أن ظاهرة الرحمة هى الرباط الذى يشد قسمى الآية الى بعضهما ، ومن ثم كان الانتقال لطيفا من خفض الجناح لأجل الرحمة

الى الدعاء بأن يرحم الله تعالى الوالدين ، فاننا نود أن نتبين السر وراء اختيار هذا التعليل بالذات وليس سواه : « كما ربياني صغيرا » .

الحقيقة أن التعليل راعى الفترة الزمنية التى فيها الأبناء وهم ضعفاء أحوج ما يكونون الى الرحمة . وبطبيعة الحال لا دور للرحمة من جهة الوالدة ما دام الجنين فى أحشائها ، ولا دخل للوالد هنا مطلقا . ولما كانت النظرة تبحث عن المرحلة من عمر الطفل التى يحتاج فيها للرحمة من والديه معا ، فقد كان من الطبيعى أن تختار الفترة التى كان فيها صغيرا وضعيفا . ولا ننسى أن حال الوالدين حينما يبلغان من العمر عتيا قريبة من حال الابن فى المرحلة التى تختارها الآية الكريمة بالذات بقصد الضرب على وتر الرحمة الحساس عند الابن الذى كان ضعيفا ومحتاجا للرحمة حاجة أبويه الضعيفين الآن للرحمة ذاتها .

وهكذا يتبين أن التعليل ذاته ، يسير فى اتجاه الرحمة التى تعطر جو الآية بدفئها . قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

وهناك لطيفة نحب أن نلفت الانتباه اليها ، وهى أن كل حبة فى عقد الحكمة هذا قد ذيلت بالتعليق اللطيف الخاص بها المناسب لها . وفى امكانك أن تستعرض هذه المجموعة من الآيات كى نتبين هذه الحقيقة ، كما أن فى امكانك أيضا أن تتبين أن الدعوة الى توحيد الله تعالى مقرونة بالدعوة الى بر الوالدين قد حظيت بالتعليق الأكبر والتعقيب الأعظم من كل تعليق وتعقيب حظيت به كل حبة على حدة فى عقد الحكمة هذا وما ذلك الا لأهمية تلك القضية الأساسية قضية توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له والتى اكتسبت قضية بر الوالدين من اقترانها بها شيئا كبيرا جدا من الأهمية . وهذه هى آية التعقيب . قال تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا ﴾ .

ومن البين أن الآية الكريمة تتكون من شقين ، وأن الشق الأول ، ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾ وان كان يصح أن يكون عاما وشاملا لكل حبات الحكمة ، فانه بحكم السياق ، يمكن أن يشد أساسا الى

القضيتين الجوهريتين اللتين صدرت بهما قائمة الحكمة الإلهية • قضية التوحيد وقضية بر الوالدين • ويكون المعنى بناء على ذلك : ربكم أيها الناس أعلم بما انطوت عليه جوانحكم وأكنته أنفسكم وأجنته ضمائركم تجاه السبب الذى من أجله خلقتم ألا وهو توحيد الله تعالى بالعبادة وإفراده بالربوبية ، وتجاه الوالدين اللذين أمر الله تعالى كل ابن بأن يحسن اليهما إحسانا كبيرا وقرن بين الأمر بعبادته عز وجل وحده لا شريك له وبين الأمر بالإحسان اليهما وبرهما • وسيجازى عز وجل كل انسان وفق ما فى قلبه وما ترجم مما فى هذا القلب إلى عمل يثاب على الصالح منه ، ويعاقب على السيىء • وقد قال عز من قائل بشأن قضية التوحيد الجوهرية[1] : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فالحرص الحرص على بر الوالدين والحذر الحذر من أغضابهما •

وانا لنحس بوقع القول فى الآية الكريمة ابتداءً : « ربكم » بما يحس به الحَرّان ذو الغلة الصادى لوقع المـاء البارد فى جوفه • فبما أن الجو العام منبه لنعم الله تعالى وآلائه وضرورة شكر المنعم المربى الخلق بآلائه ونعمه ، وشكر الوالدين المنعمين على الابن بالنعم الكثيرة التى هى فى جوهرها من نعم الله تعالى التى لا تحصى • لذلك جاء هذا القول : « ربكم » المرتبط به حقيقة التربية والتنشئة ، تمشيا مع الجو العام للآيات ، معمقا لقوة الإحساس بتلك النعم وضرورة الشكر عليها •

ومع أن الحديث فى صدر الآية الكريمة متعلق بخبـايا كل نفس إنسانية ، فانا نتبين أن صيغة التفضيل « أعلم » بما تدل عليه من علم كامل يسبر أغوار النفس ويحيط بها ، هى القادرة على التعبير عن شىء من العلم الكامل للعليم الخبير الذى قال فى محكم كتابه[2] : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾ وقال عز من قائل[3] : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ •

---

(١) النســـاء ، ٤٨ .
(٢) ق ، ١٦ .
(٣) غافر ، ٥٧ .

وإذا كان صدر الآية الكريمة ينصّ على علم الله عز وجل الكامل بخفايا كل نفس إنسانية ، ومن باب أولى ما ظهر من قول الانسان أو فعله ، فان عَجُزَ الآية الكريمة : ﴿ ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا ﴾ ينص على رحمة الله تعالى التى وسعت كل شيء ، وعلى باب التوبة النصوح المفتوح دائما على مصراعيه لكل من تاب وآمن وعمل صالحا . إن الأوابين الذين جاء ذكرهم فى الآية الكريمة هم الراجعون الى الله تعالى يطمعون فى عفوه ، ويرجون رحمته ، ويعملون الصالحات بعد التوبة النصوح ، إن كان قد حدث منهم تقصير فى حق الله تعالى أو فى حق الوالدين . وكأن الجزء الثانى من الآية الكريمة يشمل بالدرجة الأولى ، أولئك الذين حدث منهم تقصير من نوع ما فى هاتين القضيتين المهمتين . فينبغى أن تكون حالا أوبة الى الله عز وجل ، تتمثل فى شيئين التوبة النصوح أولا والعمل الصالح الطيب ثانيا . وقد أشار الى الشرط الأول قوله تعالى : ﴿ فانه كان للأوابين غفورا ﴾ وأشـــار الى الشرط الثانى قوله تعالى : ﴿ ان تكونوا صالحين ﴾ .

وينبغى أن تكون جملة « كان » منسحبة على كل الأزمنة .

إيتاء ذى الحق حقّه والنّهى عن التّبذير :

بعد أن نبه القرآن الكريم الى حق أولى الناس بأن تراعى حقوقهم وهم الوالدان ، تم الانتقال الى آخرين ، مراعيا الأولى منهم فالأولى مبينا معالم طريق التعامل معهم ، راسما المنهج الأقوم للإنفاق . قال تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ .

إن الحديث فى الآية الكريمة الأولى ينطلق ابتداءً مما هو بعيد نسبيا عن الذى يوجّه اليه الحديث . فلا ينطلق من نفس المخاطب أو ممن هو بمنزلة نفسه أعنى الآباء والأبناء مثلا ، إنّما ينطلق من ذوى القربى . ولا نستطيع فى هذه المناسبة الا أن نشير الى اهتمام ديننا الحنيف بصلة الرحم وحرصه على صلتها . ويستمر الحديث متباعدا عن شخص

المخاطب مرحلتين أخريين ، تتمثلان فى كون الحديث يتعلق بعد ذلك بالمساكين وهم أبعد من الأقارب فى العادة ، وبأبناء السبيل وهم أبعد الفئات الثلاث عن ذات المخاطب وأقل عددا • لذا حسن أن يكون الحديث فى مرحلته الرابعة ضـــابطا لهذا الخروج المتوالى عن ذات المخاطب والابتعاد المطرد عنه ، واضعا للإنسان العلامات التى تهديه سواء السبيل محددا له غاية خروجه الصالح والنهاية التى لا ينبغى له أن يتخطاها •

والآية الكريمة تجعل ما يعطيه القادر لكل من هؤلاء حقا مشروعا لهم ، على المعطى أن يقدمه وهو موقن بأنه انما يقدم لهم حقا أمره الله تعالى الذى آتاه المال أن يقدم ذلك الحق عن طيب نفس ورضا خاطر فلا ينبغى مطلقا لمن آتاه الله تعالى شيئا من المال أن يحرم ذا القربى والمسكين وابن السبيل ذلك الحق الذى ائتمنه الله تعالى عليه ، ولامجال أبدا للبخل أو الاحراج أو المن ، أو ارغام واحد من هؤلاء على سكب ماء وجهه • فليست الحقوق بموجبة أصحابها لأن يكلفوا شيئا من ذلك العنت • ولعلنا لاحظنا من قبل أن القرآن الكريم لم يشر بشأن الوالدين الى ما هو حق لهما لأن ما هو مطلوب من الأبناء أن يقوموا به بشأن والديهم شىء مركوز فى الطباع وراسخ فى الغرائز • وليس الأمر كذلك بشأن الآخرين الذين جاءت الاشارة اليهم بعد ذلك • فحرصاً من الاسلام ، دين الأخوة والمساواة على أن تبقى للمسلم كرامته كاملة موفورة ، جعل للمحتاج من ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل عند المسلمين حقوقا • إن المحتاج موضع اختبار من الله تعالى أيصبر أم يجزع • وذو المـــال موضع اختبار من الله تعالى ، أيعطى لأخيه حقه بأمر الله تعالى أم يبخل •

وفى الإمكان القول : إن الآية الكريمة ، فى الوقت الذى راعت فى الترتيب الأولى فالأولى ، فانها أشعرت بصياغتها أن الرابطة بشأن ذى القربى أقوى منها بشأن الفئتين التاليتين فى الآية،ووسيلة ذلك تقديم ذى القربى ، ثم مجىء القول « حقه » فى صيغة ضمير المفرد بعد الإشارة لذى القربى مباشرة •

إن السياق فى الآية الكريمة ، أو العطف ، أشعر بأن لكل من المسكين وابن السبيل حقا عند أخيه المسلم • ولكنه حق أقل مما لذى القربى •

ومن هنا أوجب الشارع الحكيم على الموسر بشأن ذى القربى ما لم يوجبه بشأن كل من المسكين وابن السبيل : « عن أبى حنيفة أنّ القرابة اذا كانوا محارم فقراء عاجزين عن التكسب وهو موسر ، حقّهم أن ينفق عليهم • وعند الشافعى ينفق على الولد والوالدين فحسب على ما تقرر فى كتب الفقه[1] » •

ويجمل بنا أن نقرر أن الحق المنصوص عليه فى الآية الكريمة لا يقتصر على مديد العون المادّى ، إنما هو بشأن ذى القربى مثلا ، مشتمل على كل « ما يتعين له من صلة الرحم وسد الخلة[2] والمواساة عند الحاجة بالمـــال والمعونة بكل وجه[3] »

والحقيقة أنه إذا كان القول : « حقه » الذى جاء تاليا لذى القربى متضمنا ضمير المفرد ، قد أفهمنا بأن الحديث سيستمر عن فئات أخرى لها من الحقوق أقل مما لذى القربى ، وإذا كانت هذه الحقيقة قد تجلت بوضوح حينما تم الانتقال الفعلى للمسكين وابن السبيل ، ونحن نعلم أن القريب أولى بالمعروف من البعيد ، فان صدر الآية الذى يتحدث عن ثلاث فئات متفاوتة ، مراعيا رباط الحاجة الذى يجمعها ، خير مهيىء — وهو المتحدث عن هذه الفئـــات المتباعدة المحتاجة للمـــال بالدرجة الأولى — لأن يجىء عجز الآية متحدثا عن المـــال الذى يبعثر فى غير وجه حق ، ناهيا عن ذلك ، مصححا ما قد يكون سبق الى نفوس البعض من أنّ الدعوة لإيتاء كل من ذى القربى والمسكين وابن السبيل حقه تعنى أنه يحقّ للإنسان أن يحمّل نفسه فوق طاقتها بشأن كل مسكين وابن السبيل • لقد كان لابد من ضابط لهذه العملية يتمشى مع قوله تعالى عن عباد الرحمن[4] : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ • وكان الضابط فى آية سورة الإسراء من جنس ما فهمنا من تباعد بين الفئات الثلاث التى يجمعها بالدرجة الأولى الحاجة الى المال ، قال تعالى : ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ • فالحديث عن المال والنّهى عن تبديده يجىء فى الطريقـــة التى تذكّرنا بذلك الذى يبـــذر البذور ويرمى بها فى كل ناحية كيفما اتفق •

---

(١) البحر المحيط ٣٠/٦ .
(٢) الخلة : الحاجة
(٣) البحر المحيط ، ٢٩/٦ .
(٤) الفرقان ، ٦٧ .

واللطيف أنّ الآية الكريمة يفتح لك صدرها باب الخير على مصراعيه كى تلج منه كيف شئت ومتى شئت • وأنّ عجزها يضع لك الحد الطبيعى المنطقى الذى يحول بينك وبين أن تتورّط فيما هو وراء هذا الانفتاح وآفته •

وقد جاء فى آيات الذكر الحكيم وفى السنّة المطهرة أيضا ما يلقى الضوء على معالم الطريق وغاياته • جاء فى آيات الحكمة من هذه السورة قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ وقال تعالى فى سورة الفرقان[1] عن عباد الرحمن : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى فى سورة القصص خطابا لقارون على لسان قومه[2] ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ •

ومعروف أن المصطفى صلى الله عليه وسلم جعل الحد الأعلى لما يوصى به الإنسان لنفسه بعد وفاته ممثلا فى الثلث ، والثلث كثير فى اعتقاده صلى الله عليه وسلم. فقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال[3] : « مرضت بمكة مرضا فأشفيت منه على الموت فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى • فقلت له يا رسول الله ان لى مالا كثيرا وليس يرثنى الا ابنتى أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا • قال : قلت فالشطر ؟ قال : لا • قلت الثلث ؟ قال : الثلث كبير • إنك تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة الا أجرت عليها ، حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك •• » •

فاذا كان ترك الأولاد أغنياء خيرا من التصدق به الا فى حدود معينة فما الذى يمكن أن يقال عن التبذير الذى يغدو بسببه الإنسان فقيرا معدما يتكفف الناس فضلا عن ذريته الضعفاء ؟ •

حقا إنّ الذى ينفق ماله كله أثناء حياته فى وجوه البر لا نستطيع أن نسلكه فى عداد المبذرين[4] ولكن حينما يكون له ورثة فى حاجة الى

---

(١) آية ، ٦٧ .
(٢) آية ، ٧٧ .
(٣) صحيح البخارى ١٨٧/٨
(٤) خير مثل هنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ولكنه سيد البشر ثم ابو بكر رضى الله تعالى عنه .

ذلك المــال بعد وفاته . فإننا نستطيع — فى ضوء الحكمة التى نصّ عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم تعليلاً لقوله عن الإيصاء بالثلث إنه كثير — أن نقول : انه يستحسن أن يترك للورثة شىء ما يحول بينهم وبين أن يسألوا الناس أعطوهم أو حرموهم . وعليه فمن أنفق كلّ ماله فى الخير لا يقال عنه إنه مبذّر [1] .

والذى يدخل من الإنفاق فى دائرة التبذير من أوسع أبوابها ، هو أية كمية من المــال قلّت أو كثرت تنفق فيما لا يرضى الله عز وجل ، وحرصا من القرآن الكريم على أن يظل المسلم فى دائرة الخير دائما فقد نهاه عن التبذير وأردف ذلك بآية تعقيبية توضح علّة النّهى التى لا يخطىء خطورتها ذو بصيرة نيرة . قال تعالى : ﴿ ان المبذرينّ كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ .

إنّ الشيطان عليه لعنة الله لا يريد بالإنسان إلاّ الشر كل الشر ، يزين له كل قبيح ويقبح له كل جميل ويذلل له فى سبيل الشر كل صعب . له جيش ضخم مجهز بكل الوسائل التى يحرص على أن يغري بهــا الانسان للتّجافى عن الحق وارتكاب كل رذيلة . هذا بالاضافة الى الوعود المعسولة والأمانى العذاب التى لا أول لها ولا آخر والتى هى ليست من الحقيقة فى شىء ولا من الحق فى شىء . وقد جاءت الاشارة الصريحة الى ذلك كله فى موضع آخر من هذه السورة المباركة . واليك الآية الكريمة فى سورة ابراهيم [2] التى تصــور دهاء الشيطان اللعين وخذلانه . قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لمـــا قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، انى كفرت بما أشركتمون من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

وحيث أن المبذر انما يندفع فى تبذيره بإغراء من الشيطان الرجيم وتحريضه ، لذا كان بمنزلة الأخ للشيطان الرجيم الذى يطيعه فيما لا خير فيه ولا طائل تحته . ولو بحثنا أوجها للشبه بين الشيطان من

---

(١) انظر تفسير القرطبى فى التبذير ٢٤٧/١٠ .
(٢) آية ، ٢٢ .

ناحية وبين المبذر من ناحية أخرى لتبيناها كثيرة جدا • فإن كان الإنفاق فى معصية فهو بتسويل من الشيطان اللعين ، وهذا هو التبذير عينه ، مهما كان المبلغ الذى أهدر صغيرا ، فان إثمه كبير ، هذا بالاضافة الى أن الصغير يؤدى إلى الكبير • وان كان اهدار المال فى غير موضعه ، كأن يراد من وراء ذلك الرياء ، والسمعة ، فهذا أيضا من باب طاعة الشيطان الرجيم • فاذا كان المبذر فاحش الثراء ولم يخش الفقر فهو واهم فى عدم خشيته والأولى أن تنفق هذه الأموال فى أوجه البر وهى كثيرة جدا • ومن الجائز أن يستمرىء المرء التبذير ويفاجأ بأن ماله الذي كان كثيرا قد نفد ، وأن ثروته قد تبددت وذهبت أدراج الرياح • وناهيك عما قد يتورط فيه أولئك الذين ألفوا التبذير واستمرءوا الرياء والسمعة وفوجئوا بأن ما بقى لهم من مال أو أن دخلهم لا يتكافأ كل ما اعتادوا من تبذير ما أنزل الله تعالى به من سلطان • وهنا قد يتورطون ، حرصا على مجاراة الأبهة والفخامة ، فيما لا تحمد عقباه لأنهم سيكونون مظنة افتراس الشيطان الرجيم لهم • ولم يحدث لهم كل ذلك ؟ لأنهم رعوا فى حمى المحارم أو حولها • وكان الأولى بهم أن يكونوا بعيدا منها بعـدا تاما ، وأن يرعوا فى الدائرة التى خطها لهم الشرع الحكيم •

وحيث أن المبذر رفيق للشيطان الرجيم فى هذه الحياة الدنيا ، فسيكون ، بناءً على ذلك رفيقا له يوم القيامة والعياذ بالله • وكأن هذا التعبير العنيف ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ ينال المبذر شىء كبير منه • ولا ننسى أن لفظة الرب قد عمقت معنى كفران النعمة ، وأن صيغة المبالغة التى ختمت بها الآية الكريمة « كفورا » خادمة للغرض تمـاما •

لقد بيّن القرآن الكريم الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكه الموسر تجاه ذوى الحقوق من ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل • فما العمل حينما يطلبون ذلك الحق فى الوقت الذى لا يكون عند هؤلاء الموسرين بالمصادفة ما يمكن أن يقدموه مساعدة منهم لواحد من أهل هذه الفئات ؟ الجواب على هذا السؤال نجده فى الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾ فالمؤمن حينما يفقد الشىء المحسوس الذى يمكن أن يساعد به أخا له فى الإسلام ، فينبغى ألا يفقد اللسان الرطب واللفظ العذب والوجه

الهاش الباش وخفض الجناح لأخيه المسلم • عليه أن يقول قولا لطيفا يطيب به خاطرهم ويخفف عنهم وطأة الحاجة ويُبقِى عليهم ماء أوجههم الذى كانوا واثقين من بقائه سليما موفورا قبل أن يفصحوا للشخص موضع ثقتهم وأملهم بحاجتهم • جاء فى سورة البقرة[1] قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم • الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم • يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين • ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير ﴾ •

ولما كان المطلوب من المؤمن وقد مسته رحمة الله تعالى أن يقرن بالقول العمل ، ولما كان الخوف واردا أن يغلِبَ شُحُّ الانسان رغبته الخيِّرة السابقة أن يؤتى ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل • لذا حسن أن يكون ثمة نصح لهذا الانسان بألا يبخل وإرشاد له الى الطريقة المثلى ، ألا وهى الاعتدال فى الإنفاق •

وحيث إن الإمساك خشية الإنفاق هو المتبادر الى الذهن فى هذه المناسبة ، لذا جاء النهى عن البخل أولا ، تلا ذلك الانتقال الى الطرف المقابل ألا وهو التبذير المنهىّ عنه أيضا • ومن مجموع النهيين عن طرفى النقيض يكون المذهب الوسط الذى جاءت الدعوة الصريحة اليه فى سورة الفرقان[2] بشأن الحديث عن عباد الرحمن ، قال تعالى : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ •

---

(١) آيات ، ٢٦١ — ٢٦٥ .
(٢) آية ، ٦٧ .

إن الآية الكريمة تريد أن تقول للانسان ببساطة : لا تبخل ولا تبذر . ولكن شتان ما بين طريقتنا المباشرة فى التعبير القاصرة ، وبين الطريقة التصويرية الإيحائية الإعجازية فى أداء الآية الكريمة للمعنى ، وحسن الوقع ، وبعد المرمى ، ورسم الطريق الصحيح للسلوك الانسانى بشأن إحدى دعامات الأمة ، وهو المال الذى يساعد حسن علاجه الأمة على الأخذ بمدارج الرقى ، والذى يؤدى سوء علاجه إلى انحدارها وتدحرجها .

لقد نهت الآية الكريمة عن البخل بالقول : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ﴾ ونهت عن التبذير بالقول : ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ وينتج من هذين النهيين الطريق الوحيد الباقى طريق الوسط الذى أمرنا الشرع الحنيف بسلوكه ففيه العصمة لنا من الإفراط والتفريط .

وهل أشارت الآية الكريمة من قريب أو بعيد إلى المال أو البخل ؟ لا إنها لم تشر من قريب أو بعيد ولكنه السياق الذى يتحدث عن المال من قبل هو الذى جعل هذه الصورة البارعة خاصة بالبخيل الذى يخشى الإنفاق سوء ظن منه بمالك الملك وسوء أدب .

والآية الكريمة لا تنهى عن البخل بطريقة مباشرة ، فلا تقول : لا تبخل ، إنما تنهى عن البخل بإعطاء صورة معبرة مظهرة للبخيل فى صورته البشعة المنفرة . انها صورة الشخص الذى شد الغل يده الى عنقه شدا لإساءته الى نفسه والى الآخرين ، ومن ثم وضعت العدالة القيد فى يده وشدت هذه اليد الى العنق شدا قويا جزاء وفاقا لإساءته البالغة . فهو لن يستطيع بحال أن يحرك هذه اليد . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، لأن المسىء إنما توضع الأغلال فى يديه وعنقه لأنه مستحق لذلك ثم هو مرغم ومكره على أن يكون ذلك الوضع السيىء نصيبه . أما البخيل فليس مكرها على أن يكون ذلك وضعه ، بل إنه هو الذى يضع بمحض ارادته الأغلال فى يديه وعنقه ، رضى بذلك وألفه واستمرأه . وكأن القيود والأغلال ضروب من الحلى يتحلى بها فى يديه ويتقلد . هذه هى المصيبة الكبرى والطامة العظمى . والذى أوحى بكل هذه المعانى القول : ﴿ لا تجعل ﴾ الذى يدل على الإرادة والقدرة على الاختيار .

ما أحمق البخيل الذى فى مقدوره أن يكون حرا كريما ومع ذلك هو يصر على أن يكون سجين قفصه . ذلك القفص الذى يظنه ذهبيا . وأسير قيوده وأغلاله التى يظنها فضية . أو ليس البخيل أسير الذهب والفضة ؟ وهل ثمة فرق فى اللب والجوهر بين أن تكون السجون والأغلال من ذهب وفضة وبين أن تكون من أردأ أنواع الحديد ؟ لا فرق فى اللب والجوهر بين هذا وذاك ، ولكن البخيل الواهم مشغول اللب زائغ البصر مقهور الإرادة . يحسب صليل السلاسل وسوسة نقود ، ذهله بريق الأغلال الفضية والذهبية عن مضمونها وجوهرها ، فرضى بذلك وألفه واستمرأه ، لا يطيق للهوان فراقا فهو فاقد القدرة مسلوب الإرادة مقهورها .

هذه الصورة البشعة للبخيل ، قادرة على حمل من تمثلها على الرغبة عن أن يكون وقتا من الأوقات فى ذلك الموقف . وفى سبيل الحصول على تلك الصورة المعبرة كان فى صدر الآية الكريمة عدول عن صيغة لغوية تحقق مع عجز الآية ظاهرة بلاغية لها أحيانا قيمتها . إن جملة تبسط فى عجز الآية قادرة فى العادة على أن تقذف الى الأذهان بالجملة المقابلة لها ، ألا وهى جملة تقبض ، خاصة وأننا بصدد التعامل مع الجارحة التى من أخص خصائصها القبض والبسط . ولكن شتان ما بين المقابلة اللغوية فى هذا القول الذى نجىء به نحن : لا تقبض يدك ولا تبسطها . والذى يجوز أن يوهم بأن النهى عن قبض اليد وبسطها بمعناه الحرفى بمثابة نصيحة طبية نسديها لشخص يؤثر فى يده المريضة قبض اليد وبسطها فعليه أن يأخذ المسألة بالتدريج ويحرك يده بتؤدة ، وبين الصورتين القرآنيتين المتقابلتين القادرتين بإيحاءاتهما البعيدة الغور العميقة المغزى على التنفير عن كل من البخل ومن الإسراف .

ولفظة اليد التى جاءت مفردة فى القول : « ولا تجعل يدك » يمكن أن يقال بشأنها هنا : انه يجوز التعبير فى مثل هذه الحال فى صيغة المفرد عن الشيئين المتماثلين ، كالعينين والأذنين والرجلين واليدين وهكذا . وفى الوقت ذاته يمكن أن نضيف بأنا لو نظرنا الى المسألة من زاوية أخرى ، فلربما انتهينا الى أن صيغة المفرد هنا تحقق هدفا آخر . فالعادة جرت بأن يعطى الانسان بيد واحدة وليس باليدين . وفى منع هذه اليد عن الحركة تعطيل لعملية الإنفاق والبذل .

واذا كانت لفظة مغلولة ، قدقيدت حركة اليد ، فان هـذه الزيادة ﴿الى عنقك﴾ قد عطلت حركة اليد تماما • بل إنّ هذه الزيادة فى حقيقة الأمر لا تكتفى بإعطاء النتيجة وهى تعطيل حركة اليد ، إنّما تضيف الى ذلك تصوير الحركة وتعيين الاتجاه ولحرف الجر « إلى » فضل كبير فى ذلك •

إنه ليروعنا حقا تلك القدرة البارعة على تصوير الحركة وتعيين الاتجاه وخمود يد الانسان فى النهاية مشدودة الى العنق شدا فلا قدرة على الحركة ولا أمل فى أن يتغير الحال • هذا الشريط التصويرى بارع أمين ، لأنه انتقى من شخص البخيل الذى لا يريد لنا أن نكونه الجزء منه الأكثر قدرة على التعبير عن حقيقة البخيل • لا ليس ذلك فحسب ، بل انه انتقى لنا وضـعا معينا ورسـما موحيا قادرين وحدهما على التنفير من البخل • وقد تمثل ذلك فى حركة يد البخيل المتجهة الى عنقه المعبرة بقوة عن معنى الأنانية • أو ليس الأنانى دائما وقد أمكن له أن يخطِفِ ما وصلت اليه يده ، يعيدها الى عنقه فى سرعة البرق ، وينزل عليها بذقنِه ، ويتجمع عليها بما طاوعه من جسمه حتى لكأنه الأحدب الذى صفعت قفاه مرة وأحسّ ثانية لها فتجمعا[1] يحدث كل ذلك من البخيل لأنه أنانى ، ويتوهم أن الناس سيخطفون منه ما وصلت اليه يده ، ولأنه فاسد الذوق وغير سليم الطبع .. أو لست معى بأن هذه الصورة الموحية غاية فى العظمة والروعة وأن التعبير القرآنى قمة فى الإعجاز البلاغى ؟

ونستطيع بشأن النهى فى الآية الكريمة : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ﴾ أن نعقد نوعا من المقارنة بين الصورة التى يرسمها للبخيل هذا القول فى الآية ، وبين الصورة التى يرسمها لكفار مكة قوله تعالى فى سورة يس[2] : ﴿ انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون ﴾ ويلاحظ أوّلا أن الحديث فى سورة الإسراء عن البخل يركز على اليد لأنها وسيلة الإمساك أو الإنفاق • بينما الحديث فى سورة يس عن الكافرين يركز على الأعناق لأنهـا هى رمز العنـاد ودليل الإعراض • أما الأيدى فليس ثمة إشارة ظاهرة بشأنها • ويلاحظ ثانيا أن ثمة فرقا جوهريا بين الصورتين على الرغم من أن الأغلال فى أعناق كل من الفريقين • إنّ البخيل فى هيئته يمثل الذل شكلا ومضمونا •

---

(١) الصورة لابن الرومى .
(٢) آية ، ٨ .

وإن الكافر فى هيئته يمثل الذل مضمونا وجوهرا وهو يحسب أنه يحسن صنعا • وقد عبّر عن هذه الغطرسة المخدوعة عن حقيقتها بالقول فى الآية الكريمة : ﴿ فهم مقمحون ﴾ أى فهم رافعو الرءوس كبرا وتيها بينما هم فى الحقيقة يمثلون هيئة الذليل الذى جمع الغل يده الى عنقـــه •

من المقارنة السابقة اتضحت الصورتان المختلفتان للبخيل والمعاند • البخيل تشد يده الى عنقه بالغل شدا دون كبير حاجة لأن يتغير وضع رأسه لأن المهم بشأنه يده وقد حيل بينها وبين الحركة تماما دليلا على البخل • أما المعاند فالمهم بشأنه عنقه ورأسه • لقد كان الغل الذى شد يده الى عنقه مرغما لرأسه على أن يرتفع فأشبه هذا الوضع لرأس الذليل وضـــع المعاند المتغطرس الذى رفع رأسه إعراضا عن الحـــق وشمخ بأنفه فرحا بالباطل ، مع أن حقيقة هذا المغرور المخدوع عن نفسه هو وضع ذلك الذليل العانى •

وهكذا يتضح أن صـــورة البخيل تظهره أســـيرا أقرب الى خفض الرأس • وأن صورة المعاند تظهره أسيرا أقرب الى رفع الرأس • وبالتالى فان لكل من الصورتين إيحاءها الخاص بها •

فاذا تحولنا الى القســـم الثانى فى الآية الكريمة • قال تعـــالى : ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محســـورا ﴾ • تبين أنه ينهى عن الإسراف ، ولكنه يصل اليه عن طريق رسم صورة معبرة لليـــد التى لا يستقر فيها شىء ولا يبقى • ألا وهى صورة اليد المبسوطة أى الممتدة فى خط مستقيم واحد ، ابتداءً من العضـــد حتى رءوس الأنامل • فنحن إذن بصدد شيئين مهمين بارزين فى الصورة ، ومن بروزهما تبدو قدرتهما المعبرة • الأول هو اليد الممتدة امتدادا غـــير عادى ، والثانى ، وهذا فى حقيقته امتداد للأول ، الأصابع الممتـــدة أو الكف المبسوطة • وإن اليد التى تلك حقيقتها لا يمكن أن تبقى على شىء • وهذه هى النتيجة : ﴿ فتقعد ملوما محسورا ﴾ •

واختيار هيئة القعود ، يقذف الى أذهاننا بالصفة ذاتها التى جاءت فى أولى آيات الحكمة • قال تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ • وسبق أن بينا عظمة اللفظة فى مثل هذا الموضع وعميق مغزاها • فهى تدل على عجز القاعد وقلة حيلته ويأسه من صلاح أمره ، وتدل على أن القاعد قد اختار بمحض ارادته هـــذه الهيئة ، إذ لدى جملة قعد القدرة على الإيحاء باتجاه القـــاعد من أعلى الى أسفل ، من القيام الى القعود •

ما أقرب الشبه بين المبذر الذى بعثر ماله هنا وهناك فى طريق الحياة الطويل ، ظنا منه بأن ماله لا يمكن أن تمتد له يد النفاد ، واذا به يصعق لهول المفاجأة المرة ، بأن ماله أصبح أثرا بعد عين • فلم يعرف كيف العمل أو التصرف فتحير وتبلد وسدت السبل أمامه وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وبين ذلك الظهر الذى انقطع سيره لفرط العنف به والقسوة عليه • فلا فائدة مطلقا من المجهود المضنى الذى سبق أن بذل فقطع بسببه مسافات طوالا لأنه لم يصل الى الهدف المنشود ، بينما وصل الظهر الآخر الأقل قوة سليما معافى لرفق صاحبه به • المبذر بمنزلة الظهر الحسير والمقتصد بمنزلة الظهر الذى انتهى الى الغاية سليما معافى • فكما أن الظهر السليم يتخذه صاحبه ركوبا كل مرة ، كذلك المال الذى يحسن صاحبه علاجه ينتفع به دائما فهو ينفق منه ويوفر ويستثمر • انه ليس بالمبذر المسرف فى الإنفاق ، ولا بالبخيل الشحيح المغلول اليد • انما هو الذى جاءت الاشارة اليه والى أمثاله فى قوله تعالى عن عباد الرحمن[1] : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ •

وبالنظر الى الآية الكريمة والثلاث الآيات السابقة عليها ، يتبين أن النهى عن البخل وعن التبذير يتوزعان الأربع الآيات توزيعا عادلا • فاذا اعتبرنا ما جاء فى الآية الأولى عن التبذير : « ولا تبذر تبذيرا » فى مقابل ما جاء فى الآية الرابعة عن البخل : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » تبينا بعد ذلك أن ما تبقى من الآيتين الكريمتين يتعلقان بالنهى عن البخل وعن الإسراف على التوالى ، وأن الآية الثانية تنهى عن الإسراف والثالثة تنهى عن البخل • ما أعدلها من قسمة تنهى عن طريقين متطرفين فلا يبقى سوى الطريق الثالث الوسط الذى ينبغى سلوكه •

ولنا فى حقيقة الأمر ملاحظتان أخيرتان على هذه الآيات التى تدعو الى الاعتدال فى الإنفاق • الملاحظة الأولى هى أن نظرة القرآن الكريم للبخل من زاوية إنسانية وحانية ، تمتد كى تشمل الأقارب والمساكين وذوى القربى • فليست حدود البخل قاصرة على الانسان ذاته أو من هم فى حكم ذاته من أهل وذرية • فلو أعطى الانسان ذاته حقها ومن هم فى حكم ذاته وحرم الأقارب والمساكين وذوى القربى حقوقهم فانه تشمله دائرة البخل • والملاحظة الثانية هى : بما أن حدود التبذير

(١) الفرقان ، ٦٧ .

يمكن أن تمتد الى ما حرّم الله تعالى وتتوغل فيه ، وأن أذى البخل يغلب عليه أن يكون قاصرا على الحيلولة دون وصول الخير الى محتاجيه دون أن يكون هناك فى الغالب الأعم وصول مباشر الى مجال الشر ، فالغالب على البخيل أن يمتنع عن الإنفاق فى مجالى الخير والشر على السواء ، لذا كانت طريقة النهى فى الآيات الكريمة عن التبذير أشد من طريقة النهى عن البخل • ويكفى دليلا على ذلك أن التعقيبين فى الآيات الأربع هما معا من نصيب التبذير المنهى عنه بشدة • هذا بالاضافة الى أننا بمقارنتنا الآية التى قلنا إنها خاصة بالنهى عن التبذير بالآية الخاصة بالنهى عن البخل ، يتضح أن آية التبذير تظهر التبذير والمبذرين فى أقبح صورة ، قال تعالى : ﴿ ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ • بينما آية النهى عن البخل ترقق قلب الانسان وتحلى لسانه • ترشده الى طريق الخير وتحببه فيه ، حتى حينما يكون معسرا • وهذا معمق للنظرة القرآنية الإنسانية والشاملة •

وجريا على ما سبق فان النهى عن البخل وعن التبذير — أو الدعوة الى الاقتصاد فى الإنفاق — قد أردف بآية تعقيبية ، قال تعالى : ﴿ ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ • وهذه الآية تتحدث عن مختلف كميات الرزق التى هى من نصيب جميع البشر • ولذا فان كل إنسان يفهم أن الخطاب موجه له مهما كان حظه من الرزق • فكأن الآية الكريمة تتحدث عن الرزق فى أوسع مدى له ، على حد قوله تعالى[1] : ﴿ ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ كما تتحدث عن كل مستويات الرزق حتى ينتهى الأمر نزولا الى الرزق فى أضيق حدوده ، بحيث لا يكاد يتخطى الضرورى من طعام وشراب وكساء • والى النوع الأخير أشار قوله تعالى[2] : ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم ﴾ •

والآية التعقيبية تنص بصريح العبارة على أن كل ما رزقه الإنسان انما هو من عند الله تعالى وبارادته عز وجل وعلمه • فعلى الإنسان

---

(١) آل عمران ، ٣٧ .
(٢) هود ، ٦ .
(٣) العنكبوت ، ٦٠ .

فى المقابل أن يتصرف فيما رزقه وفق أوامر الله تعالى التى جاءت فى كتابه العزيز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم • فليس من حق الانسان أن يبذر تبذيرا ، لأنه مخالف لأوامر خالقه ورازقه الذى أرشده الى طريق الخير والفلاح من اقتصادٍ فى الإنفاق وإعطاءٍ لذوى الحقوق حقوقهم وألا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يحسن كما أحسن الله تعالى اليه • وليس من حق الانسان أيضا أن يبخل ، لأنه فى ذلك مخالف لأوامر الله تعالى التى نهته عن البخل الذى هو سوء ظن بالخالق الرازق وسوء تصرف فى مال الله تعالى الذى آتاه الانسان •

ويظل الطريق الوسط ، طريق الاعتدال فى الإنفاق ملازما لكل من بسط الله تعالى له فى الرزق وكان قادرا على أن يسلك أيا من طرق الإنفاق الثلاثة ، حتى ينتهى الأمر الى ذلك النوع من البشر الذين قَدَرَ الله تعالى لهم الرزق • فعلى هؤلاء أن يعلموا يقينا أن ذلك التقتير انما تم بعلم الله تعالى وارادة اللطيف الخبير • فهم موضع ابتلاء من الله تعالى أيصبرون فيثابوا أم يجزعون فيخسروا الدنيا والآخرة • إذ لا فائدة من الجزع والهلع مطلقا ، وليعلم هؤلاء أنهم ليسوا فقط موضع الابتلاء ، بل إنّ الذين بسط الله تعالى لهم فى الرزق موضع الابتلاء أيضا • فليس الصبر مقصورا على المحروم والسائل ، بل وعلى الذين بسط الله تعالى لهم فى الرزق لأنهم موضع ابتلاء حقيقى ، هل يقومون بشكر الله تعالى على نعمه ؟ هل يصبرون عن المعاصى ؟ هل يقومون بتطبيق تعاليم الشرع الحنيف تجاه مال الله تعالى الذى آتاهم ؟

وإنّ الابتلاء الذى هو من نصيب الذين بسط الله تعالى لهم فى الرزق قد لا يكون أقل من الذين قَدَرَ الله تعالى لهم الرزق ، بل لعله أن يكون أكبر وأشد • فاذا كان المحروم مضطرا أحيانا ألا يرتكب بعض ما حرّم الله ، لأنه مشغول دائما فى السعى وراء لقمة العيش ، فلعل من وُسِّعَ عليه فى الرزق — فى المقابل — بحاجة كبيرة لمقاومة إغراءات الشيطان الرجيم الكثيرة التى فى إمكانه تنفيذها ، وللصبر عن المعاصى• وهذا فى الحقيقة نوع من الجهاد كبير •

ومما هو دليل على أن من وَسَّعَ الله تعالى عليه فى الرزق هو موطن الابتلاء الأكبر من الله تعالى ، أن المترفين فى كل قرية هم السبب

الأول الموجب لاهلاك الله تعالى تلك القرية التى لم يصبر أهلها عن المعاصى • قال تعالى فى هذه السورة المباركة : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ •

وإنّ عجزَ الآية الكريمة : ﴿ انه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ بمنزلة التعليل لحكمة الله تعالى التى فضلت هذا على ذلك فى الرزق • ومن الجائز أن نقول : ان لفظة الخبير متعلقة فى الدرجة الأولى بكل من الماضى والحاضر فالله عز وجل خبير بخفايا كل نفس إنسانية ، وعلى علم تام بوسوسة كل من هذه النفوس التى لا يأتى عليها حصر • وفى ضوء العلم المطلق للّطيف الخبير تمت قسمة الأرزاق لحكمة يراها عز وجل • ومن الجائز أيضا أن نقول : إنّ لفظة البصير متعلقة فى الدرجة الأولى بالمستقبل الذى أحاط به عز وجل علما • فالله عز وجل هو العليم بكل ما ستقوم به كل نفس إنسانية وفق حظها من الرزق الذى قسم لها •

واذا كان كل من الذين بسط الله لهم فى الرزق والذين قدر عليهم فى الرزق موضع اختبار منه عز وجل ، فان الحبة التالية فى عقد الحكمة متعلقة فى جوهرها بهذا الاختبار ، ولكنه هذه المرة اختبار الذين قدرَ الله تعالى أرزاقهم •

النّهى عن قتل الأولاد خشية إملاق :

قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ •

واضح أن الآية الكريمة تشير ــ كما يشير غيرها فى القرآن الكريم ــ الى عادة بعض العرب قبل الاسلام فى ارتكاب جريمة وأد البنات ، وتنص على السبب فى ذلك وهو خوف الفقر •

ونستطيع أن نفهم أن ثمة سببا آخر للقيام بجريمة الوأد هذه ، يقوى من خوف الفقر ، وهو أن حياة العرب قبل الاسلام تقوم على السلب والنهب والسبى • ويجلب الأخير عليهم بالذات عار الدهر • فكان يقوم البعض من قساة القلوب غلاظ الأفئدة بعملية الوأد هذه وازهاق النفوس البريئة الطاهرة • وقد جاءت الاشارة الصريحة الى

هذه العملية فى سورة التكوير[1] أثناء الحديث عن يوم القيامة • قال تعالى :﴿ واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ • كما جاءت الإشارة المعبرة عن حقيقة شعور هذا البعض حينما يخبر بأنه قد رزق بنتا فى قوله تعالى[2] :﴿ واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ •

فهذه الفئة الضالة من عرب الجاهلية ، بدلا من أن تستبشر بالنعمة التى امتن الله تعالى بها عليها والتى تتمثل فى نعمة الإنعام بالاناث ، اذا بالواحد من هؤلاء جهلا منه وحمقا ، وجحودا منه لنعمة الله تعالى ونكرانا ، يهوله ذلك النبأ ويتمكن منه الألم ويلازمه الاستياء فترات طوالا • ويبلغ الأمر بالبعض للدرجة التى يفكر معها فى التخلص من هذه النعمة البريئة المظلومة ، بأن يدفنها حية فى التراب • لقد قضى الاسلام الحنيف على هذه العادة الجاهلية المرذولة قضاء مبرما ، كما أعطى المرأة حقوقها التى تكفل لها السعادة والكرامة كاملة غير منقوصة •

وطريقة الآية الكريمة فى تقديم ضمير الغائب على المخاطب فى القول ﴿ نحن نرزقهم واياكم ﴾ تحملنا على المقارنة بين هذا الترتيب للضمائر وبين حدوث العكس فى آية سورة الأنعام[3] قال تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾•

والسبب فى اختلاف ترتيب الضمائر فى الآيتين الكريمتين هو أن آية الإسراء لا تتحدث عن فقر واقع بالفعل إنما تتحدث عن فقر متوهم من قبل الذين يئدون البنات ومتوقع حسب اعتقادهم الخاطىء • قال تعالى مشيرا الى ذلك : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ﴾ فالأولاد عند هؤلاء هم سبب خشيتهم من الفقر فاقتضى الأمر بناء على ذلك أن يكون هناك تطمين من هذا الجانب أولا وازالة لهذا السبب المتوهم

---

(١) آية ، ٨ ، ٩ .
(٢) النحل ، ٥٨ ، ٥٩ .
(٣) آية ، ١٥١ .

منه الفقر ، فتقدمت الإشارة أولا الى الحقيقة القائمة من أن الله عز وجل متكفل برزق هؤلاء الأولاد ، تلا ذلك الإشارة الى أنه عز وجل متكفل برزق الآباء أيضا ، فلا داعى مطلقا للخوف من الفقر ولا موجب لعملية الوأد أساسا ﴿نحن نرزقهم واياكم﴾ .

أما آية الأنعام فانها تنص على الفقر الموجود بالفعل . قال تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من املاق﴾ . فهذه الفئة الباغية بسبب الفقر الذى هى فيه ، عمدت الى وأد البنات ، ظنا منها أنها حينما تتخلص منهن فستنقشع عنها غمة الإملاق . فاقتضى دفع هذا الوهم إرشاد هذه الفئة الباغية الى أن الرزق بيد الله تعالى ، وأنهم مجرمون فى حق بناتهم اللاتى وأدن ، فالله عز وجل الذى قدر عليهم الرزق هو المتكفل برزقهم ورزق بناتهم ، فليس للبنات علاقة مطلقا بالإملاق الموجود فعلا بدونهن ، فهذه هى ارادة الله تعالى وحكمته . قال تعالى : ﴿نحن نرزقكم واياهم﴾ . فلا ذنب للبنات مطلقا حتى يوءدن ويدفن وهن على قيد الحياة فى التراب .

والحقيقة أن القرآن الكريم ليعطينا بالإشارة الصريحة الى ارتكاب بعض الطغاة من العرب جريمة وأد البنات ، جانبا من الضلال المبين الذى كان فيه العرب قبل الإسلام . والسبب فى ذلك هو أنهم يعيشون فى زمن الفترة ، أى الزمن الذى لم يبعث فيه رسول يخرجهم من ظلمات الشرك والجهل الى نور التوحيد والعلم . هذا بالاضافة الى أن العهد قد طال جدا بالوقت الذى بزغ فيه نور الحنيفية السمحاء ، دين أبينا ابراهيم عليه السلام . فأدخل العرب فى النزر اليسير الذى وصلهم من تلك التعاليم ما لم ينزل الله تعالى به من سلطان . فكانوا يعيشون فعلا فى ضلال مبين[1] وشاءت ارادة الله تعالى أن تخرج هؤلاء العرب الأميين من ظلام الشرك الى نور التوحيد . قال تعالى[2] : ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ وقال تعالى[3] : ﴿يس ، والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ .

---

(١) فى صحيح البخارى تحت عنوان أيام الجاهلية ٥/٥١ اشارة الى بعض هذه الاضافات .
(٢) الجمعة ، ٢ .
(٣) يس ، ١ — ٦ .

ونحب بشأن هذه القضية أن نشير الى أمرين : الأول هو أن هؤلاء الطغاة من العرب الذين يئدون البنات رغبة عنهن وزهدا فيهن ، بينما يحبون ذكور الذرية حبا جما ، يذهبون ، حمقا منهم وسفها ، الى أن الملائكة بنات الله تعالى ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ﴾ إنّ هؤلاء الحمقى المغفلين يحرصون على أن يكون الذكور نصيبا لهم ، لأنهم يحبون ذكور الذرية أما ما لا يحبون وما لا يشتهون فانهم يجعلونه نصيبا لله عز وجل ، فتورطوا فى الزعم بأن الملائكة بنات الله تعالى ، وسنلاحظ أن هذه القضية الخطيرة ستتحدث عنها أولى الآيات التى تلى آيات الحكمة • قال تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ، انكم لتقولون قولا عظيما ﴾ وجاء فى سورة النحل[1] تبكيتا لهؤلاء قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ • والأمر الثانى هو المنزلة العالية الرفيعة التى احتلتها المرأة فى الاسلام سواء أكانت بنتا أم أما أم أختا الى غير ذلك • فاذا نظرنا اليها مثلا من زاوية الفترة التى كانت توأد فيها فى الجاهلية تبينا أن جريمة الوأد أصبحت فى الإسلام مجرد حكايات تقص دليلا على الضلال الذى كان فيه العرب قبل الإسلام • يضاف الى ذلك العناية الفائقة التى أولاها الإسلام البنات وإليك هذا الحديث من صحيح البخارى[2] أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حدثته قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت • فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : « من يلى من هذه البنات شيئا فأحسن اليهن كن له سترا من النار » • وسئل المصطفى صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك • قال ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك • قال ثم أى ؟ قال أن تزانى حليلة جارك[3] • وقد حث ديننا الحنيف على رحمة الكبار الصغار • ومن باب أولى اذا كن بنات • كما عاب المصطفى صلى الله عليه وسلم على أولئك الذين لا يعاملون الصغار المعاملة الرحيمة التى يستحقون وهم لها محتاجون فقال لواحد من هؤلاء مؤنبا : من لا يرحم لا يرحم[4] وقال لآخر أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة[5]

(١) آية ، ٥ .
(٢) ٨/٨ .
(٣) صحيح البخارى ٩/٨ .
(٤) صحيح البخارى ٩/٨ .
(٥) صحيح البخارى ٩/٨ .

ولعناية الاسلام الحنيف بجانب الرحمة بالصغار ، وبخاصة البنات ، كان بين أيدينا تراث اسلامى مجيد فى هذا الجانب ، جانب الرحمة بالصغار والعناية بالبنات بالذات • وكل ذلك فيض من فيض رحمة المصطفى صلى الله عليه وسلم بالصغار البنات خاصة ، وحثه على العناية بهن وتربيتهن تربية اسلامية[1] •

وإذا كانت آية الحكمة قد نهت عن قتل نفس بريئة لمجرد الخوف من الفقر ، وهذه إحدى العادات الجاهلية السيئة ، فان الحبة التالية فى عقد الحكمة تنهى أيضا عن جريمة جاهلية أخرى مماثلة ، هى جريمة الزنى •

النهى عن الاقتراب من جريمة الزنى :

قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ •

هـذه الآية الكريمة تنهى عن مجـرد الاقتراب من دواعى الزنى وموجباته ، لأن الراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه • والنهى عن مجرد الاقتراب أدل من النهى عن الارتكاب •

ووصفت الآية الكريمة الزنى بأنه فى كل الشرائع السماوية عمل غاية فى القبح والشناعة ، منهىّ عن ارتكابه بل الاقتراب من أسـبابه وموجباته • فبهذا يوحى القول « كان » فى قوله تعـالى : ﴿ انه كان فاحشة ﴾ وانه لكذلك فى الإسلام خاتم الرسالات السماوية • كمـا وصفت الآية الكريمة الزنى بأنه بئس الطريق الذى يسلك لأنه يؤدى دائما وأبدا الى أسوأ النتائج وأوخم العواقب •

ولا يكتفى الاسلام بالنهى المجرد عن هذه الجريمة ، انما يقرن ذلك بالعلاجين الطبيعيين •

أما العلاج الأول فيتعلق بالغريزة التى أوجدها الخـالق عز وجل لحفظ النوع ، وكى يقوم هذا النوع بدور الخلافة فى الأرض • ويكون ذلك تارة بتحقيق رغائب هذه الغريزة فى الطريقة الصحيحة المشروعة •

---

(١) انظر على سبيل المثـال وحى القـلم للرافعى ، ١/٢٦٠ — ٢٧٨ مقالتان بعنـوان « بنته الصغيرة » .

وتارة أخرى بتهذيب هذه الغريزة فى الطريقة الصحيحة وبخاصة تلك التى تجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، أعنى الصوم • وقد جمع بين هذين الطريقين الصحيحين الحديث النبوى الشريف • فقد رُوِىَ عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا معشر الشباب ، مَنِ استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء[1] » والباءة القدرة على عول الأسرة وتلبية مطالبها •

أما الصوم فانه مسعف على غض البصر وحفظ الفرج ، لانصراف الإنسان الى ما يرضيه عز وجل • وأما الزواج ، فان واجب المسلمين جميعا أن يتعاونوا على مساعدة كل شاب يستطيع أن يقوم بواجباته تجاه أسرته • وقد جاء فى سورة النور[2] بشأن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ، ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم • وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ •

والعلاج الثانى يتعلق بذات الإنسان حينما يتعدى حدود الله تعالى • وهو اما أن يكون غير محصن ، أى غير متزوج ، وله نوع معين من العقاب ، أشار اليه قوله تعالى فى سورة النور[3] : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين • الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ واما أن يكون المتعدى لحدود الله تعالى محصنا أى متزوجا ، وعلى نوع العقاب الذى فى حقه نص الحديث النبوى الشريف • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة[4] •

---

(١) صحيح البخارى ٣٤/٣ (كتاب الصوم) .
(٢) آية ، ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) آية ، ٢ ، ٣ .
(٤) صحيح البخارى ، ٦/٩ .

وإنما كان عقاب المحصن الزانى شديدا لأنه أغنى النـــاس عن هذا الصغار • هذا بالإضافة الى أن الدين الحنيف أباح له أن يتزوج الى الأربع نسوة ، عدا ما ملكت يمينه • فالشارع الحكيم إنما صدر فى حكمه عن كل تلك الملابسات وكل جوانب المســألة •

ولو أردنا أن نتتبع بالتدريج خطوات الدين الحنيف فى سبيل إقصاء هذا النوع من الجرائم بعيدا عن المجتمع الاسلامى الذى يجب أن يكون طاهرا ونظيفا ، فإنّ أول ما يمكن أن يلاحظ فى هذا الشأن هو أن الاسلام حريص على أن يبقى المسلم بعيدا عن منطقة الخطر ، بعيدا عن أن يرعى حول الحمى ، خوفا من أن تزل به القدم لا سمح الله • والآية الكريمة فى آيات الحكمة هذه تنهى عن الاقتراب من منطقة الخطر• وحتى لو فرض أن الانسان قد خرج بعونه تعالى من منطقـــة الخطر سليما معافى ، فانه من الجائز أن يتيح الفرصة للشيطان الرجيم بأن يجرى من أخيه المسلم مجرى الدم فى جســـده ، فيلقى فى نفسه عن الذى وقف موقف التهمة ما هو برىء منه ، وبذلك يتورط أخوه فيما أشار اليه قوله تعالى(١) : ﴿ ان بعض الظن اثم ﴾•

ويكفى دليــلا على وجوب ابتعاد الإنســـان عن مواقف التهم أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، حرصا منه على أن ينقذ شخصين من الأنصار أن يوردهما الشيطان الرجيم مواطن الردى فيظنا غير الخير ، بادر باخبار الأنصاريين بأن زوجه صفية بنت حيى هى التى معه صلى الله عليه وسلم عند باب المسجد الذى كان يعتكف فيه ، كما بيّن عليه الصلاة والسلام هذا التنبيه منه والتبيين وهو أن الشيطان الرجيم يجرى من الانسان مجرى الدم فى جســـده(٢) « فقالا سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم وانّى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شــيئا » •

فإذا تحولنا الى ميدانٍ ينبغى أن يتم فيه التعاون بين الجنسين بقصد الابتعاد عن مواطن التهم ، تبين أنه ميدان الأبصار • فعلى كل من المسلم والمسلمة أن يغض طرفه وألا يمد عينيه الى ما حرم الله تعالى • فالطرف اذا لم يكبح كان مطية للرعى حول الحمى بل فى الحمى ذاته •

---

(١) الحجرات ، ١٢ .
(٢) صحيح البخارى ، ٣/٦٤ .

وقد جاء فى سورة النور[1] ، حثا للمؤمنين على أن يغضوا من أبصارهم قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون ﴾ كما جاء بعد ذلك مباشرة حث للمؤمنات على أن يقمن بالمثل فى مقابل ذلك • وبما أن المرأة بطبعها تتزين ، وبما أن التزين بطبعه اغراء ، فان القرآن الكريم ، فى الوقت الذى أمر المرأة بما أمر به الرجل ، حدد لها الميادين التى يحل لها أن تبدى فيها من زينتها • أما فى غير ذلك فلا • قال تعالى[2] : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجـــال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء • ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ والجيب هو المكان من الثوب الذى يدخل منه الشخص رأسه ، فاذا لبس الثوب أمكن أن يرى منه صدره ، فعلى كل مســـلمة أن تعى هـــذه الأوامر السماوية جيّـــدا •

ومن التعاليم السماوية التى ينبغى أن تكون موضع التنفيذ آيات سورة النور التى تنبه الى ضرورة أخذ كل حيطة وحذر كى يكون المجتمع الاسلامى طاهرا نقيا • قال تعالى[3] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم • والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم ﴾ •

---

(١) آية ، ٣٠ .
(٢) النور ، ٣١ .
(٣) آيات ، ٥٨ — ٦ .

فإذا تحولنا الى سورة الأحزاب ، تبينا أن فيها الكثير من الأوامر والنواهي الموجهة الى أمهات المؤمنين ، رضوان الله تعالى عليهن • وحيث أنهن الأسوة الحسنة للمؤمنات فينبغى للمسلمات أن ينتفعن من النصائح الموجهة أساسا لهؤلاء الأمهات • ومما جاء فى ذلك قوله تعالى[1] : يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا • وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله • انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا • واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا • ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما • فمع أن فى هذه الآيات الكثير من الأوامر التى يتساوى فيها الرجال والنساء ، فان هناك من النواهى ما يخص المرأة المسلمة ، على الرغم من أن الخطاب موجه أساسا الى أمهات المؤمنين • ومن هذه النواهى ما يتعلق بالمسألة التى نحن بصددها وهى ضرورة البعد عن مواقف التهم • فالمرأة المسلمة منهية عن أن تخضع فى القول وتلين حينما تضطر لمخاطبة الرجال، وعليها أن يكون حديثها مستقيما قاصراً على الضرورى من القول الأقرب الى الصرامة والجفاف منه الى اللين والخضوع بالقول اللذين يطمعان الذى فى قلبه مرض من الرجال •

كما أن المرأة المسلمة منهية نهيا باتا عن أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى ، حيث كانت المرأة عادة لا تحتشم بل تتزين وتتعمد كشف بعض أجزاء جسمها وتظهر للرجال •

وينبغى أن يكون للمرأة المسلمة نصيب من هذه الآية الكريمة[2] الموجهة للمؤمنين على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم فى أدب التعامل مع نساء المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأعنى بالدرجة الأولى الحجاب الذى جاءت الاشارة اليه • قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم

---

(١) آيات ، ٣٢ — ٣٥ .
(٢) الأحزاب ، ٥٣ .

فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن • وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ • وقال تعالى[1] : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما ﴾ •

وحينما يطبق كل من المسلم والمسلمة هذه التعاليم ، فان هذه الفاحشة لن يكون لها باذن الله تعالى وجود فى المجتمع الاسلامى الذى من أهم مميزاته اقامة الصلاة ، وقد قال عز من قائل[2] خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم والمراد أيضا أمته : ﴿ اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ •

وينبغى على الجماعة المؤمنة أن تتعاون فيما بينها على مساعدة كل شاب ترضى عن دينه ويستطيع أن يقوم بمتطلبات الأسرة كى يتزوج • الا يفعلوا ذلك تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير • وقد قال عز من قائل[3] : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله • والله واسع عليم ﴾ • وقال تعالى[4] : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ • وقال تعالى[5] : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ • وقال تعالى[6] : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ •

وعلى الشخص الذى لم يغنه الله تعالى من فضله أن يستعفف ،

---

(١) الأحزاب ، ٥٩ .
(٢) العنكبوت ، ٤٥ .
(٣) النور ، ٣٢ .
(٤) الروم ، ٢١ .
(٥) النحل ، ٧٢ .
(٦) يس ، ٣٦ .

وقد قال تعالى[1] : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ .

ولا يخفى أن الأوامر العامة والنواهى شاملة للزوجين الذكر والأنثى والخوف كل الخوف أن تكون بعض الجماعات الاسلامية قد تساهلت مع الذكور اذا ما انحرفوا ، والخوف كل الخوف أيضا أن تكون بعض الجماعات الاسلامية قد تساهلت مع الذكور والإناث معا ، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

وحينما نبحث عن السبب الأولى الذى جعل القرآن الكريم يقرن بين النهى عن الاقتراب عن الزنى وبين النهى عن قتل الأولاد من ناحية وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق من ناحية أخرى ، فان أول مايتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ، هو أن أى اتصال بين الذكر والأنثى يعنى الإنجاب[2] و « إن فى الزنا قتلا من نواحٍ شتى ، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، ينبعث غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده ، فاذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة . فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء ، وهو قتل فى صورة أخرى قتل للجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها فتنتهى الى ما يشبه الموت بين الجماعات » .

ولو تمثلنا جنينا وليد اتصال غير مشروع شَمّ هواء هذه الحياة ، فما مصير هذه النفس الطاهرة البريئة المنبوذة من أولى الناس بحبها ورعايتها ؟ لتقريب أبعاد هذا القتل المباشر أو غير المباشر لهذه الأنفس البريئة ، لنتصور شيئا مما يعانيه الطفل الذى فقد أحد والديه أو كليهما. انه لو فقد والده فكأن ظهره قد كسر . ولو فقد والدته فكأن قلبه قد كسر . ولو فقد والديه معا فكأنه فقد كلا من الظهر والقلب معا .

فلنلق نظرة فاحصة على شىء مما يكابد أمثال هؤلاء فى هذه الحياة وهم الذين لهم أسرهم التى تعولهم . فهل يستطيع فكر أن يحيط بجانب

---

(١) النور ، ٣٣ .
(٢) فى ظلال القرآن ، ١٥/٢٩ .

من جوانب شقاء أولئك الذين يولدون ــ لا سمح الله ــ وهم منبوذون دائما ، وحينما يفتحون بعض أعينهم يظن الواحد منهم أن كل رجل فى الدنيا هو والده وكل أنثى والدته • وما ذنبه أن تعصف بقلبه الغض وعقله الطرى ، وجسمه اللطيف ، وملامحه البريئة ، تلك المفاجأة الصاعقة بأنه محروم الوالدين أساسا ؟ وهل كانت هذه النتيجة السيئة والعاقبة الوخيمة غائبة عن الذين كانوا سببا فيها ؟ لا بطبيعة الحال •

ومن أهمّ أسباب فحش هذا الاتصال غير المشروع ، وكونه سبيل سوء ، الوقوف على ما لا يحق الوقوف عليه إلا بحقّه ومن الطريق المشروع • ويتضح هذا السبب الداعى صاحب كل نفس حرة الى تنكب طريق الفاحشة ، مما جاء فى السيرة النبوية من تبيين المصطفى صلى الله عليه وسلم لبعض العرب[1] سببا من أسباب تحريم الزنى وبعد وقوف هؤلاء على ذلك السبب قبل غيره آمنوا بالحكمة السامية وراء هذا التحريم ، وأكبرت نفوسهم الحرة الأبية الأهداف النبيلة من النهى عن الاقتراب من هذه الفاحشة • فقد جاء وفد من العرب الحديثى عهد بجاهلية للمصطفى صلى الله عليه وسلم كى يعلنوا اسلامهم • وكأنهم عز عليهم أن يحرم الاسلام هذه الفاحشة ، وكأنهم أرادوا لأنفسهم ان يقوموا فى الاسلام بما كانوا يقومون به فى الجاهلية من ارتكاب لهذه الفاحشة • فعمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الى تنبيه هؤلاء لما غفلوا عنه أثناء الطلب ، ولو فطنوا له لحمدوا الله تعالى الذى أذهب عنهم رجس الجاهلية ، فان عليهم أن يعرفوا أن لكل امرأة أبا واخوة وأهلا يسوؤهم مطلقا ما يطلب القوم منها ، فهل يرضى هؤلاء وهم آباء واخوة وأهل أن يفعل بنسائهم ما يريدون فعله بالآخرين ؟ • واقتنع القوم حالا بعظمة الدين الاسلامى الذى حرم هذه الفاحشة •

وإنّ كل صاحب نفس حرة أبية ليستطيع أن يتبين فى هذا السبب قبل سواه ، زاجرا لنفسه الكريمة عن أن تدنو من هذا الصغار • وينبغى أن يعلم يقينا أنه حينما يعف الرجال يعف النساء •

قال عز من قائل[2] : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم

---

(١) من هذيل . وانظر مثلا السيرة النبوية ٢/١٨٠ وهجو حسان لها لغدرها .
(٢) النازعات ، ٣٧ ــ ٤١ .

هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المـأوى ﴾ • وقال تعالى[1] : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وقال تعـالى[2] : ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم • ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ •

وكثير هى الآيات التى تنهى عن التورط فى جريمة الزنا • جاء فى سورة المؤمنون[3] • قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون • الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون • والذين هم لفروجهم حافظون • الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وجاء فى سورة النور[4] قوله تعالى ﴿ الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ •

وجاء فى سورة الفرقان[5] فى صفات عبـاد الرحمن قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون • ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ •

ولا نستطيع فى هذه المناسبة الا أن نستحضر الموقف النبيل لنبى الله تعالى يوسف عليه السلام الذى تعرّض وهو فى ريعان شبابه للكثير من الإغراء من قِبل النسوة وامرأة عزيز مصر • وقد أنقذه الله تعـالى من كل تلك المحن بسبب اقباله الكلى على الله تعالى • وانه عليه الصلاة والسـلام ليضرب المثل الأعلى لكل شـاب مسلم لله رب العالمين • ومعروف أن سورة يوسف عليه السلام تنهى عن ارتكاب الفاحشة فى مجرى لهـا فريد بين سور القرآن الكريم • وذلك عن طريق تصوير المعاناة التى كابدها عليه السلام وهو الذى أوتى شطر الحسن والذى يشبه القمر ليلة البدر ، فى سبيل رضى الله تعالى • وقد جمع الله تعالى ليوسف عليه السلام جزاء عفته وطهره واحسانه خيرى الدنيـا والآخرة ، فمن عليه بأن جعله عزيز مصر كما من عليه بدرجة النبوة •

---

(١) المؤمنون ، ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الاعراف ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٣) آيات ، ١ — ٧ .
(٤) آية ، ٣ .
(٥) آية ، ٦٨ .

وانه عليه السلام ليضرب المثل الأعلى لنـــا نحن المسلمين فى العفة ومراقبة الله عز وجل فى السر والعلن ، فى وقت الشدة ووقت الرخاء • وقد نص القرآن الكريم على أنه عز وجل مع عباده المتقين دائما وأبدا • قال تعـــالى[1] : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ • وقال تعـــالى[2] : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ وجاء فى سورة يوسف[3] دليلا على ما نقول قوله تعـــالى : ﴿ قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم ﴾ •

وهذا موسى عليه السلام • الشاب القوى المسلم لله رب العالمين ، يضرب المثل الأعلى فى الطهر والأمانة وفى الغيرة على الحرم • وقـــد أبدله الله تعالى من خوفه أمنا ومن وحشته أنسا بالزوجة الصالحة والخلان الصالحين • وهذه الآيات الكريمة من سورة القصص[4] تنطق بكل ذلك • قال تعالى : ﴿ ولمـــا توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولمـــا ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لمـــا أنزلت الى من خير فقير • فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنـــا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين • قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين • قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل ﴾ •

وهذه مريم البتول ، والدة السيد المسيح كلمة الله تعالى وعبده ورسوله ، أثنى الله تعالى عليها فى العديد من المواضع فى القرآن الكريم

---

(١) الطلاق ، ٢ ، ٣ .
(٢) الطلاق ، ٤ .
(٣) آية ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) آيات ٢٢ — ٢٨ .

جزاء طهرها وعفتها • بل إن القرآن الكريم ليجعلها واحدة من نموذجين للمرأة المؤمنة • قال تعالى[1] : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين • ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ وقال تعالى فى سورة الأنبياء[2] عن البتول : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ •

والحقيقة أن أية جماعة تفشو فيها هذه الفاحشة ، فان النتائج السيئة والعواقب الوخيمة ، تكون من نصيب الذين يأتون هذه الفاحشة ، ومن نصيب الذرية ، ومن نصيب الجماعة بل والأمة كذلك • يبدو ذلك بسهولة بالمقارنة بين أى مجتمع اسلامى متمسك بتعاليم الدين الحنيف وبين المجتمع الآخر الذى يأكل أفراده ويتمتعون ويلهيهم الأمل • إن المجتمع الثانى قد أنهكته الأمراض وضعضعت كيانه غربة الروح فيه والتنكر للتعاليم السماوية • فاذا كانت المادة لا زالت ممسكة بأطراف ذلك المجتمع ، فما أقرب الوقت الذى سينقطع فيه هذا الرباط الواهى ويغدو فيه ذلك المجتمع على حقيقته ركاما وحطاما •

ونود فى حقيقة الأمر أن نبين بعضا من مظاهر سوء هذه السبيل الخاطئة التى تعانى منها فعلا الجماعات التى تمارس هذه الرذيلة • وإنا لنعتمد فيما نقول على كتابات الذين يحاولون الإصلاح فى تلك المجتمعات وعلى رأى العين •

من أقرب مالاحظ محاولو الإصلاح فى تلك الجماعات انتشار الأمراض الفتاكة بين الذين يسيرون فى ذلك الطريق الخاطىء ، تلك الأمراض التى أودت بحياة الكثير والكثير من الشباب والفتيات وهم فى زهرة العمر وريعان الشباب • وهى ليست وقفا على السائرين فى ذلك الطريق، وانما هى شاملة للذرية أيضا •

وماهى أقرب الاحتمالات المتبادرة للذهن من قبل أولئك الذين يسيرون فى الطريق الخاطىء ويحققون رغباتهم الرخيصة فى ذلك الأسلوب

---

(١) التحريم ، ١١ ، ١٢ .
(٢) آية ، ٩١ .

الرخيص ؟ أقرب الاحتمالات أن يستمرىء الفرد السير فى ذلك الطريق مسحورا بشبابه مزهوا بقدرته • ويكون ذلك على حساب الأسرة القائمة على الأسس الصحيحة • فما دام الكل يستطيع أن يحقق رغائبه ، فما له ولمسئوليات الأسرة والذرية وما الى ذلك ؟ والحقيقة أن هذه النظرة الخاطئة تعتبر شيئا أساسيا فى نظر الكثيرين ، إذ يفترض الشخص أنه لن يكون يوما من الأيام رب أسرة ، ويهيىء نفسه لهذا المصير ، وينساق مع رغائبه الى أبعد مدى • فان تحقق ما هيأ نفسه له فليس الأمر غريبا عليه ولا مفاجئا له • وان صح غير ذلك ، فإنه فى ظنه لم يخسر هنا ولا هنالك •

وقد أدى هذا الواقع المرير الى نتائج جد سيئة ، ظهرت أولا فى هيئة إحساس هؤلاء الأفراد بالغربة والتفرد والوحشة ، وبخاصة حينما تنطفىء فجأة عند كل من الشاب والشابة شعلة الشباب • وتكون الرغبة الأكيدة عنهما والزهد فيهما من الآخرين الذين يبحثون دائما عن الجديد فى كل شىء •

وظهرت هذه النتائج بعد ذلك فى الارتفاع المخيف لعدد الأفراد المصابين بالاضطرابات فى الأعصاب والاختلال فى العقول • يحدث كل ذلك بسبب الإحساس العميق بالضياع والتفرد والغربة والوحشة ! وقد أفادنى بعض الثقات بأن مستشفيات الأعصاب فى تلك البلاد التى يقال عنها إنها متحضرة ، كثيرة العدد جدا وكبيرة الحجم أيضا • وتكاد تضارع الواحدة منها المدينة الصغيرة ، على حد تعبير هذا الثقة الذى زار بعضها ورأى الحقائق المذهلة بعينى رأسه •

وانما استحكم من القوم الشعور بالغربة وهم بين أهليهم وذويهم ، لأن الجانب الروحى قد جفت منابعه عند القوم • نسوا الله عز وجل فأنساهم أنفسهم • وغاب عنهم الهدف الذى من أجله خلقهم الله عز وجل وهو عبادته وحده لا شريك له ووقتها يشعر المرء المقبل على الله تعالى أنه وان كان وحيدا فانه كثير بالله عز وجل • وحينما تعطل التعاليم السماوية تحل محلها آراء البشر وأهواؤهم ، فتظل الأمة مترنحة فى سيرها لا تكاد تقطع خطوات فى طريق ما حتى يبرق لها طريق آخر يستهويها وهكذا ، لا تكاد تستقر حتى تتحرك ولا تكاد تهدأ حتى يزعجها برق خلب ويقض مضجعها رباب كاذب ومن هنا أتيح للمادة فى

تلك المجتمعات أن تكون كل شيء بالنسبة للقوم • وأين هذا العرض الزائل من تعاليم السماء ؟

ومن أقرب الآثار الضارة لشيوع هذه الفاحشة أن ارتكابها أدى الى مزاحمتها للفضيلة بل والقضاء عليها قضاءً مبرما • وانتهى الأمر الى إلف الفاحشة والاعتراف بها رغم رضى المصلحين ، وشمل الاعتراف أولئك الذين يسمون فى تلك المجتمعات برجال الدين • فبقصد أن يغرى هؤلاء الرجال ، الشباب والشابات على أن يرتادوا البيوت التى أذن الله تعالى أن ترفع للعبادة بعد أن هُجرت ، ما كان من رجال الدين هؤلاء الا أن غضوا الطرف عما يجرى فى تلك البيوت من موبقات وهى التى أنشئت للعبادة أساسا • إنّ الله تعالى طيب ولا يقبل الا طيبا ولكن هؤلاء المسئولين يلجأون الى تلك الوسائل الرخيصة لإغراء الذين انصرفوا عن بيوت العبادة كى يؤموها • وذلك يدل على ضعف سلطان الدين فى تلك المجتمعات ولاشك •

واذا كان الذين يسمون برجال الدين قد أقروا تلك الموبقات حتى فى الأماكن المخصصة للعبادة ، سواء أكانوا راضين أم مرغمين ، فقد ارتبط بذلك إقرار من السلطات بتلك الموبقات بل إنّها أصبحت أمورا معترفا بها رسميا وإنّ القانون ليحمى الى حد كبير مرتكبيها •

وأدى الإسراف فى إرضاء الشهوات الى رد فعل عكسى • فبعد أن كانت الفحشاء هى المنتشرة ، تحولت هذه المجتمعات الى أقوام سوء على غرار قوم السوء الذين تبرأ منهم نبى الله لوط عليه السلام • ومن الحكومات ما اعترف رسميا بشرعية القيام بذلك المنكر !

أين يمكن أن يوضع هؤلاء المسئولون فى مختلف مظان السلطة فى تلك المجتمعات التى تعيش حياة أسوأ من حياة الجاهليين قبل الاسلام بالقياس الى المسئولين بمختلف صورهم فى المجتمع المؤمن الذى يمثله قوله تعالى[1] : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ ولولا دفع

---

(١) آل عمران ، ١٠٤ .
(٢) الحج ، ٤٠ ، ٤١ .

الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا • ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ •

ونحن بايرادنا هذه الملاحظات على تلك المجتمعات ، لا نريد إلا الاعتبار والاتعاظ من أن ننساق وراء الأقوام الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم • وقد قال تعالى[1] : ﴿ فاعتبروا يا أولى ابصار ﴾ وان على المسلمين مسئولية كبيرة تجاه الجماعات لتعريفهم بحقيقة الإسلام • ومن أهم الوسائل الكفيلة بنجاح هذا المسعى باذنه تعالى ، أن يطبق المسلمون أنفسهم تعاليم الاسلام قبل أن يعرّفوا الآخرين عليها. وإنّ لنا فى السلف الصالح لأسوة حسنة • فما انتشر الاسلام الا بتطبيق المسلمين تعاليمه فى السر والعلن • ويكفى دليلا على ذلك تلك المناطق النائية التى لم يصلها يوما من الأيام جندى مسلم واحد • ومع ذلك فان المسلمين هناك عشرات الملايين •

وفى الوقت الذى ندعو فيه الى تعريف تلك المجتمعات بحقيقة الإسلام نحب أن ننبه الى أن الساعين إلى الإصلاح فى تلك المجتمعات ليسوا راضين مطلقا عن انحراف أقوامهم • والعجب أن يوجد بيننا المفتونون بتلك الحضارة المادية المتنكرة للروح وللأخلاق • نقول هذا وقد تواترت الأنباء عن زحف العديد من تلك العادات السيئة الى بعض المجتمعات الإسلامية ولا حول ولا قوة الا بالله •

وهناك نقطة مهمة نحب أن نقف عندها بهذه المناسبة ، هى أن ديننا الحنيف يسعى الى جعل شخصية المسلم غاية فى القوة بحيث يستطيع أن يذلل الصعاب ويجتاز العقبات ، ويكون ذلك عن طريق شحن نفس المسلم بأكبر شحنة روحية تجعل من ضميره الحى أكبر موجّه له ومسيطر عليه ، حيث يشعر فى أعماقه دائما بأن الله عز وجل معه أينما كان ومطلع على كل حركاته وسكناته ووسوسة نفسه وحينما يكون الضمير حيا ، فان صاحبه يستحيى أن يقوم فى السر بأى عمل لا ترتاح له نفسه الأبية • وكأن ضميره الحى ، ونفسه الحرة ، وخلقه الكريم ، شخوص حية تحيط به وتتحرك فى كل اتجاه معه ، وتسجل عليه كل هفوة توشك

---

(١) الحشر ، ٢ .

أن تبدر منه • ولماذا يحس المسلم بكل ذلك ؟ لأنه باختصار يخشى الله تعالى ويعلم يقينا أن ثوابه عند الله تعالى عظيم حينما يخشاه فى السر والعلن ، وأن عذابه عز وجل عظيم لمن عصاه ولم ينه النفس عن الهوى •

وفى سبيل تقوية شخصية المسلم وتقوية شعوره بأن الله عز وجل رقيب عليه ، وأنه مثاب على مثقال الذرة من الخير ، ومعاقب على مثقال الذرة من الشر ، كانت الإشارات كثيرة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى وجوب مراقبة الانسان لله تعالى فى السر مراقبته اياه عز وجل فى العلن ، فما أكثر الإشارات الى علم الله تعالى بما يبدى الناس ويكتمون وما يعلنون ويسرّون • ومما جاء فى الاتجاه الذى نحن بصدده ، الإشارة فى سورة النور الى علم الله تعالى التام بما يبدى كل إنسان وما يكتم حينما يدخل بيتا غير مسكون • فلا يليق بالمسلم مطلقا أن يظن أن بامكانه وقد خلا له المكان أن يقوم بما أحبت نفسه الأمارة بالسوء • على المسلم أن يعرف جيدا أن عن يمينه ويساره ملكين حاضرين دائما يقظين أبدا يسجلان له أو عليه كل صغيرة وكبيرة • لقد جاء فى سورة النور[1] بقصد تبيين بعض جوانب الآداب الاسلامية فى السلوك والحفاظ على عورات المسلمين قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون • فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم • ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ •

وقد جاء على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم فى خطبته بحجة الوداع ما يؤكد قيمة العِرْض فى الإسلام • فقد قال عليه الصلاة والسلام مخاطبا المسلمين فى ذلك[2] « إنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » وقد أوصى المصطفى صلى الله عليه وسلم بالجار وبعرض الجار خيراً كثيرا • سئل المصطفى صلى الله عليه وسلم أى الذنوب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك • قال ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك • قال ثم أى ؟ قال أن تزانى حليلة جارك[3] •

---

(١) آيات ، ٢٧ — ٢٩ •
(٢) صحيح البخارى ، ١٨/٨ •
(٣) صحيح البخارى ، ٩/٨ •

قال تعالى[1] : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

بعد أن نهت آيات الحكمة عن قتل الأولاد بطريق مباشر وهو ما يسمى بالوأد وبطريق غير مباشر ، بسبب جريمة الزنى تحولت فى حبة من حبات عقد الحكمة إلى النهى عن قتل النفس التى حرّم الله تعالى الا بالحق .

النهى عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق :

قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا ﴾ .

فى الإمكان تقسيم الآية الكريمة الى ثلاثة أقسام . القسم الذى ينهى عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ﴾ والقسم الذى يتحدث عن السلطان الذى جعله الله تعالى لولى الشخص المقتول ظلما ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾ والقسم الثالث بمثابة التعقيب على ذلك السلطان الذى جعله الله تعالى من نصيب ولى المقتول ﴿ انه كان منصورا ﴾ .

وبتأملنا للقسم الأول ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ﴾ يتضح أنه ينهى عن قتل النفس التى حرّم الله تعالى الا بالحق ، وهى حالة من حالات ثلاث أشار اليها الحديث النبوى الشريف : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله الا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة » وبتأملنا للقسم الثانى ، قال تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾ ؛ يتضح أنه يتحدث عن حالة واحدة فقط من الحالات الثلاث فلماذا ؟ .

والجواب على ذلك هو أننا حينما ننظر الى هذه الحالات الثلاث باحثين عن أكثرها بروزا فى الجماعة وظهورا ، وأدعى — بسبب ذلك — لتدخل من يعنيهم الأمر شخصيا للحصول على دم القاتل — وربما فى ثورة الاندفاع سواه — لاعتقادهم أن ذلك حق مشروع لهم ، فانه يتبين أنها الحالة الأولى التى خصتها آية الحكمة بالمعالجة، أليس قانون

---

(1) النور ، ٢٦ .

الأخذ بالثأر الذى كان متغلغلا آنذاك فى أعماق نفوس العرب الحديثى عهد بالجاهلية ، خليقا بأن يعالج فى الطريقة اللائقة بأهميته وأن يعطى العناية الكافية ، ذلك القانون الذى جعل جزيرة العرب قبل الاسلام مرجلا يغلى بالدماء والأحقاد والحروب ؟ • بلى ، انه ليستحق أن يعطى العناية اللائقة بأهميته فقد كان فى الجاهلية كل فرد عرضة لأن يكون واترا موتورا ، ولم يكن فى امكان الشخص الواحد أن يتهاون فى الأخذ بثأره ، فان التهاون أو قبول الدية يجلب لولى المقتول العار الذى ليس وراءه عار فى اعتقادهم •

وقد عالج الاسلام الحنيف هذه المسألة الخطيرة فى الصورة التى ترضى وتقنع كل عاقل حصيف • فبعد أن كان الفرد فى الجاهلية يعطى نفسه هواها فيسرف فى القتل أخذا بثأره ، نجد الإسلام ، وقد حوّل هذا الحق الى الدولة صاحبة السلطان وسخر الدولة لأخذ الحق من القاتل فقط • فمن حق ولى المقتول أن يقتص أو يقبل الدية أو يعفو •

ان هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ﴾ يبين القيمة الغالية لهذه النفس التى خلقها الله تعالى • فكما أنه عز وجل هو المنفرد بخلق كل نفس إنسانية ، كذلك هو المنفرد بوضع حد لنهاية حياة كل نفس • فليس من حق أى انسان أن يضع الا بالحق ، حدا لنهاية أية نفس ، بما فى ذلك صاحب هذه النفس لأن نفس الانسان ليست ملكا له وكيف يحق له أن يتصرف فيما لا يملك ومن هنا كان الوعيد الشديد للشخص الذى يقتل نفسه[1] •

وقيمة النفس الانسانية غالية فى كل الشرائع السماوية ، فعلى سبيل المثال ، بعد أن قتل أحد أبناء آدم عليه السلام أخاه ، على نحو ما بينت سورة المائدة ، جاء تبيين قيمة النفس الإنسانية من حيث الإساءة اليها أو الإحسان • فمن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا • قال تعالى حكاية عن بنى اسرائيل[2] : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ •

---

(١) انظر صحيح البخارى ، ١٩/٨ .
(٢) المائدة ، ٣٢ .

وهكذا يتبين أن كُلاًّ من بشاعة قتل النفس المظلومة وجميل انقـاذ النفس من هلاك محقق ، يدل على القيمة الغالية للنفس الإنسانية التى لا يحل وضع نهاية لهـا الا بالحق ووفقا لحالة من الحالات الثلاث التى تبيح دم الشخص المسـلم .

إنّ الآية الكريمة تعالج داء العرب المتأصل قبل الاسلام ، وهو الأخذ بالثأر الذى لم يقم يوما من الأيام على قاعدة من العدل والمنطق . إنّما كان يعتمد على القدرة والقوة فقط وارضاء شهوة إراقة الدماء . فإنْ كان الولى ضعيفا ضاع حقه ، وان كان قويا أخـذ حقه أضعافا مضاعفة . فعلى سبيل المثال ، حينما قتلت بكر فى الجاهلية كليب وائل سيد تغلب ، اشتعلت بين الحيين الحرب التى تسمى بحرب البسوس التى استمرت سنوات عدة . وفى تلك الأثناء تمكن المهلهل ، أخو كليب ، من قتل سيد من سادات بكر ، هو بجير بن الحارث بن عبّاد . وظن الناس أن المهلهل قد أخذ بثأره واشتفى . ولكن هذا السيد لم يستحق فى نظر المهلهل الا أن خاطبه قائلا : بؤ بشسع نعل كليب . يعنى أن **هذا السيد إنْ كان ذا قيمة ، فهى لا تعدو بحال قيمة سير النعل الذى** يحتذيه كليب ! -

وبطبيعة الحال كانت الحاجة أكبر من ماسّة لأن يعالج القرآن الكريم والسنة المطهرة هذا الداء العَياء . وإذا كان قبل الاسلام ، يستطيع كل قادر أخذ حقه وفوق حقه ، بينما لا يستطيع غير القادر أخذ أى شىء . فان الاسلام الحنيف فى الوقت الذى أظهر حجم جريمة قتل النفس البريئة على حقيقته ، فنهى عن قتل هذه النفس البريئة نهيا شديدا ، هو جعل أخـذ الحق من القاتل للدولة التى سخرها لذلك . لقد جاء على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم فى خطبته بحجة الوداع قوله[1] : « وإنّ كل دم كان فى الجاهلية موضوع . وإنّ أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبغض الناس الى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبتغ فى الاسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه[2] » . وجاء فى الحث على إقامة الحدود

---

(١) السيرة : ٦٣/٢

(٢) صحيح البخارى ، ٧/٩ .

قوله تعالى[1] : ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

ونود فى حقيقة الأمر أن نقف عند القول « فى القتل » الذى جاء فى القسم الثانى من الآية الكريمة : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾ وإذا كنا تبينا أن هذه الجزئية الكريمة تنهى ولى المقتول عن الإسراف فى القتل بأن يقتل غير القاتل أو القاتل وسواه فانا نضيف الى ذلك بأن القول « فى القتل » يرضى فى وليّ المقتول الرغبة الكامنة فى أعماقه فى أن يقتص من القاتل ، ويجعل تلك الرغبة حقا مشروعا للولى يعينه على تحقيقه السلطان . فإذا قبل الولى الدية أو عفا ، فذلك يعنى أنه تنازل بمحض ارادته عن حقه الأكبر المشروع فلا ندم ولا شعور بالغبن .

إنّ القِصاص ، والنهيَ عن الإسراف فى القتل ، مرتبطان بالمسئولية الفردية فى الإسلام . والّتى أشار اليها مثلا قوله تعالى فى هذه السورة ، ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فالقاتل مسئول وحده عما فعل ويقتص منه وحده . وبذلك يعلم كل فرد فى المجتمع أنه هو المسئول وحده عن كل ما يصدر منه . فإذا رسخ هذا الشعور فى الأنفس وأقيمت حدود الله تعالى ، استتب الأمن فى البلاد ، وانتشرت الطمأنينة ورفرف السعادة ، لأن كل فرد فى المجتمع آمن على نفسه وأهله ومصالحه .

وإنّ حقيقة الأمن والطمأنينة والسعادة التى هى من نصيب المجتمع الإسلامى الذى يطبق حدود الله تعالى تجعلنا ننتقل إلى المجتمعات الأخرى التى لا تقيم حدود الله تعالى . فبما أن الكثير من أفراد تلك المجتمعات قد اطمأنوا الى أنه ليس هناك العقاب المكافىء لما يقومون به من جرائم ، فقد تمادَوْا فى غيّهم وضلالهم ، فارتفعت فى تلك المجتمعات أعداد الجرائم وتنوعت صورها . ومع ذلك فان تلك المجتمعات صابرة على شقائها وترنّحها مع القوانين الوضعية . فهى اليوم ترى إقامة هذا الحد وغدا ترى رفعه . وهكذا . وقد قال تعالى[2] : ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ .

---

(١) البقرة ، ١٧٩ .
(٢) النور ، ٤٠ .

النّهي عن الاقتراب من مال اليتيم إلاّ بالتى هى أحسن والأمــر بالوفــاء بالعهــــد

قال تعــالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا ﴾ .

ولا يخفى أن النظرة الى اليتيم فى الآية الكريمة من زاوية ما هو حق له وهو المــال . وهى زاوية مجانسة للزوايا التى نظرت منها الآيات الكريمة ، السابقة واللاحقة . وفى الإمكان أن نقول إنها زوايا الحقوق التى هى لله عز وجل أو لعباده . ولهذا السبب كان حديث آية الحكمة هذه عن المــال الذى هو حق لليتيم ، على الرغم من أن ثمة الكثير من الزوايا التى نظرت خلالها آيات الذكر الحكيم والسنة المطهرة .

ففى سورة الفجر[1] مثلا الحض على إكرام اليتيم ، قال تعــالى : ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴾ . وقال تعالى فى ســورة الإنسان[2] : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ وقال تعــالى فى سورة البلد[3] : ﴿ أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ﴾ وقال تعالى فى سورة الضحى[4] ناهيا عن قهر اليتيم : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ وقال تعالى فى سورة الماعون[5] ناهيا عن أن يدفع اليتيم عن حقّه : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ . وما أكثر المواضع فى القرآن الكريم التى فيها الدعوة الى الاحســان لليتيم[6] قال تعالى ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين ﴾

والحقيقة أن اليتيم سواء أكان ذكرا أم أنثى فانه موضــع كبير العناية فى كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهو موضع العناية فى كل الشرائع السماوية ، فقد جاء مثلا عن بنى اسرائيل قوله تعــالى فى سورة البقرة[7] : ﴿ واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ .

---

(١) آية ، ١٧ .
(٢) آية ، ٨ .
(٣) آية ، ١٤ ، ١٥ .
(٤) آية ، ٩ .
(٥) آية ، ١ ، ٢ .
(٦) النساء ، ٣٦ .
(٧) آية ، ٨٣ .

وكما عُنيت آية سورة الإسراء بمال اليتيم ، كذلك عنيت آية سورة الأنعام[1] التى اتفقت فيها طريقة التعبير تماما بطريقة التعبير فى آية الإسراء . هذا الى أن ثمة أكثر من موضع فى القرآن الكريم يدور فيها كلها الحديث حول العناية بمال اليتيم . قال تعالى فى سورة النساء[2] : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا[3] كبيرا ﴾ وقال تعالى فى سورة النساء أيضا[4] : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ إنّ أولياء اليتامى مأمورون اذا بلغ اليتامى رشدهم أن يدفعوا اليهم أموالهم وأن يشهدوا عليهم . ومأمورون إنْ كانوا أغنياء أن يستعففوا عن مدّ أيديهم الى أموال اليتامى ، أما ان كان الولى فقيرا فانه مسموح له أن يأكل بالمعروف . كما نهى الأولياء عن أن يأكلوا أموال اليتامى إسرافا بغير حق أو أن يسرعوا بإنفاق أموال اليتامى وتبذيرها قبل أن يكبروا . وقال تعالى فى سورة النساء أيضا[5] : ﴿ واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ .

لقد بينت الآيات السابقة ما على الأولياء من واجبات وما لهم من حقوق . وهذه الآية الكريمة : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾ تسعى إلى إحداث هزة عنيفة لأولياء اليتامى تنبههم بشدة الى وجوب تقوى الله تعالى فى اليتامى وضرورة وضع أنفسهم موضع المتوفين ووضع ذريتهم هم أنفسهم موضع اليتامى عليهم أن يعاملوا اليتامى فى الصورة الحسنة التى يريدون لذريتهم الضعاف أن يعاملوا بها فيما

---

(١) آية ، ١٥٢ .
(٢) آية ، ٢ .
(٣) حوبا . اثما .
(٤) آية ، ٦ .
(٥) آيات ، ٨ ــ ١٠ .